الألف كتاب الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ. ج. ولز

المجلد الثالث

ترجمة



عبد العزيز توفيق جاويد

هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen

By

H. G. Wells

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١- راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ الدكتور عب د الحمي د يونس، وراجع المترجم الطبعة الثانية.

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

فهرس

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

كلمة المترجم

نال الزمان بعد الإغريق من صولة الرومان، ومالت شمس قيصر، وولت الأيام العظيمة والأيام دُوَل........

وانقضت خمس عشرة مائة من السنين... تلقت فيها البشرية من الدروس ما تلقت، وقاست من العذاب والآلام ألوانًا.

خمس عشرة مائة سنة أو تزيد.. مرت هزالا عجافًا حتى لأخال التاريخ شديد الرغبة في تخليص ذاكرته من شوائبها؛ لما حطمت من نظم، وشتتت من جموع، ولما قوضت من خُلق، ولما اجترحته في الوحدة العالمية العامة التي كانت الشيء الوحيد الذي أفادته الدنيا من الرومان والتي لا تبرح هدفنا الأعلى الذي نسعد بدلوفنا إليه.

خمس عشرة مائة من السنين.. توقف فيها موكب الحضارة، وأخذ الناس يتلمسون طريقهم فلا يجدونه؛ وكأني بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولاً، ويجنحون إلى إصلاح الحاضر والحاضر خرائب وأنقاض، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة تحيي نفوسهم. وكان الناس في قديم العصور في همجية فآلت بهم الحال إلى نظام، وها هم أولاء في حال لا هي بالهمجية ولا هي بالمدنية، حال من الانتكاس المؤنس الموحش.

خمس عشرة مائة من السنين أو تزيد.. أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفة محلولكة، فقد فيها الإنسان كل أمل في هذا الوجود، وارتد إلى الكون قانون الغاب الذي قوامه الظفر والناب، والذي يغتال فيه القوى الضعيف، وترجح فيه القوة كل حق.

ظلام حالك وفوضى شاملة، وتفتت لكل شيء إلى جزيئاته بل ذراته الأولى. وذوو الضمائر يسائلون أنفسهم أهكذا نهاية البشرية؟ أهكذا تتحطم كل الآمال التي عقدها الناس على مستقبل مشرق سعيد؟

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحَزَن.

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقبة الطويلة المديدة من الليل الأكدر، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأي، ثم استردت الأمور بغض وعيها، وأخذت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعًا في دقة الخيط: وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضًا منهمرًا من باهر الضياء وساطع الإشراق، لولا هذا لقضي على المدنية في غابرها وحاضرها، ولأديل من الإنسانية إلى أبد الآبدين.

فأما الومضة الأولى التي شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة، فذلك الوليد الذي انتبذت به أمه مكانًا قصيًا، والذي كان كلمة من الله شاءت بها إرادته القدسية، أن تعيد إلى النفوس شيئًا من الأمل، وأن تلقي في روع الإنسانية ألا تقنط من رحمة الله، وإذا هو يُعَلِّم القويّ الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفاني الأرض، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يداه من مال وقوة ونشب.

وكانت الومضة التي أوراها ذلك النبي الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فمدت يديها تواري العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما. وما هي إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديد كثيفًا فاحمًا مدلهما.

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد...

ثم دار الزمان دورته، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من لدنها، تعيد إليها شيئًا من الثقة والطمأنينة. وجاءت النفحات القدسية في البوادي العربية على يد ذلك اليتيم العائل، الذي آواه ربه وأغنى. إذ يقول له المَلَك: "اقرأ" وما هو بقارئ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتابًا مطهرًا، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحبشي. ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والتزود للآخرة بالصلاح والتقوى. لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق، وهبت لنصرته البوادي وأقبل عليه الناس رجالاً وعلى كل ضامر، وسعدت البشرية هنيهة بالإيمان والمساواة والتضحية في سبيل الحق والخير.

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها، ففقدت إيمانها بالحق، وحرمت التعلق بالمُثُل وتجانفت عن كل تضحية.

وانطبق الستار كرة أخرى مرخيًا دياجيره، وران على الناس سبات عميق طال في الشرق حتى لتحسبه نعاس الأبد.

ثم خفق سراج القدر في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشيم الحيوات الأولى، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخرًا لا ينضب له معين؛ فأوقدت نارًا بدأت بإحياء العلوم خافتة تسري ولا ترى، وانتهت بنهضة القرون الوسطى مشبوبة حارة، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونيران فيّاضة الضياء مشرقة السطوع....

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصري الكريم؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادي الأمين، وإلى ذلك النهوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون في القرن العشرين.

ولن أزيد القارئ بيانًا بالجذل الطروب الذي يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى عظمي في تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها في دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلسفية العميقة التي يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التي مهما يكن رأي بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه.

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى.

عبد العزيز توفيق جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيرًا إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة. وقد بذلت في تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنجليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد في مجلديه الأول والثاني. وأضفت إليه كدأبي في سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية. وبسّطت عبارته لتكون في متناول كل فهم، رغبة مني في إبلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذي عقل مستطلع يطلب النور.

ع. ت. ج

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية. ولا غرو فإنه بما حوى من ثقافة عميقة وفلسفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتمم الرسالات العليا التي قام بها أفذاذ الرجال، قد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر.

وقد تصادف، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع، أن وقعت في يدي طبعة إنجليزية حديثة جدًا نقحها المستر رايموند بوستجيت فضبطته عليها، وفعلت ذلك أيضًا بالمجلدين الأول والثاني من الطبعة الثالثة. وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا.

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة. وأعدت النظر في الأعلام فجاءت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجيًا أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والثقافة والتاريخ أتمنى أن يقبل عليها شبابنا اطلاعًا وانتهالاً.

ع. ت. جاويد

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية

١- اليهودية إبان الحقبة المسيحية.

٢- تعاليم يسوع (عيسى) الناصري.

٣- الديانات العامة الجديدة.

٤- صلب يسوع الناصري.

٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع.

٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها.

٧- قسطنطين الأكبر.

٨- تأسيس المسيحية الرسمية.

٩- خريطة أوربا في ٥٠٠م.

١٠-خلاص العلوم على يد المسيحية.

١ - اليهودية [١] إبان الحقبة المسيحية

لن يتهيأ لنا فهم خصائص المسيحية التي عليها الآن أن تلعب دورًا كبيرًا في تاريخنا، والتي فتحت أعين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد، حتى نرجع البصر بضعة قرون ونحدثك عن الأحداث التي جرت في فلسطين وسوريا، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية. ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودي وتقاليده، وتحدثنا عن يهود التشتت (Diaspora) وعما فطرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهي في مهد بدايتها، وعن التطور التدريجي لفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه: أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفعه مكانًا عليا. والفكرة اليهودية كانت ولا تزال مزيجًا عجيبًا من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة. وكان اليهود يترقبون مخلّصًا معينًا: مسيحًا يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم، تنطوي على استرجاع ما كان لداود وسليمان من مجد أسطوري، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيّرة والحازمة أيضًا. حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية، وإذ أفل نجم قرطاجة من بعد صور وهوتا في غياهب الظلمات، وأصبحت إسبانيا ولاية رومانية، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع. وليس ثمة شك أن الفينيقيين المتناثرين في إسبانيا وإفريقية وفي كل أرجاء البحر المتوسط، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة، - قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية. ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودي أدوار قوية من الدعوة واستمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغيرة والاعتزال. إذ حدث يومًا أن اليهود قهروا الإدومايين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا يهودا [٢].

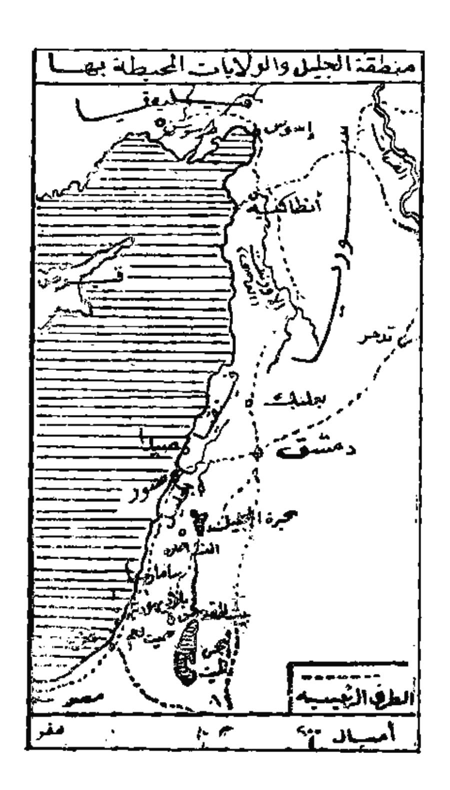
وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية في زمان محمد ﷺ، وثمة شعب تركي في جنوب الروسيا كان في معظمه يهوديًا في القرن التاسع. والواقع أن اليهودية هي المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامية الأصل. ولا مراء أن ما لليهود من التقاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفينيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود في بابل. على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل، التي كانت تقوم تقريبًا بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقًا؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تتجر وتزدهر وتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية. ولم يحدث في يوم من الأيام أن الشطر الرئيسي من الشعب اليهودي كان يقطن اليهودية، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدًا.

---

[١] أرض أو بلاد يهوديا أو يهودية أو اليهودية هي ترجمة للفظة (Judea) الأجنبية. كما ورد في المجلد الثاني من المعالم. وتسميها الموسوعة العربية الميسرة باسم جوداي. (المترجم).

[٢] تاريخ يوسيفوس.

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وف رص عظيمة جدًا من الناحيتين المالية والسياسية. فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم، وك انوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدئوا وما بلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آذ ذاك أوسع منهم انتشارًا، ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق. فك ان الإغريقـ ي عدوًا للإغريقي؛ أما اليهودي فكان لليهودي أخًا ونصيرًا. فحيثما حل يهودي، وجد رجالاً له م عق ل مث ل عقليته وتقاليد مثل تقاليده. فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون الق انوني. م ن أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حسابًا في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلاً للقروض أو مبعثًا للمتاعب. وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كشعب، على حين أصبحت "الهلينية" نورًا عامًا يضيء للجنس البشري كافة.



(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سبيل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب اليهودي الذي عاش في بلاد اليهودية (Judea) نفسها. عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية في وسط طريق كبير مطروق إن صح هذا التعبير. لقد كانوا في الزمان القديم ينزلون بين سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى الجنوب. وها هم الآن بين السلوقيين شمالاً والبطالمة جنوبًا، فلما أن ذهبت ريح السلوقيين، هوت على رأسهم قوة الرومان. ونتيجة لهذا كله كان استقلال "بلاد اليهودية" على الدوام أمرًا مقيدًا غير مستقر. ولا بد للقارئ أن يرجع إلى كتابي "الأخبار العتيقة" (Antiquities) و "حروب اليهود" لفلافيوس يوسيفوس – (وهو كاتب مطنب ممل ذو نزعة وطنية جامحة تبعث في الرأس الجنون) – إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين، والمكّابيين والهيروديين ومن شاكلهم. كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقي المعتاد، ماكرين، غادرين وملطخي الأيدي بالدماء. وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين. ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحو التام إلا معونة يهود التشتت الأقوى نفوذًا، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبراطور فسبازيان وخليفته، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاجة. وقد فعل تيتوس ذلك محاولاً أن يقضي على الشعب اليهودي القضاء المبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودي قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه.

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة. فاليهودي لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيمانًا راسخًا؛ وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحق. وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رافضًا في رجولة عبادة أي قيصر رب. كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه. فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة.

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين. فأنت واجد إلى اليمين، إن جاز لنا مثل هذا التعبير، فئة اليهود العليا المتشددة، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تمامًا حتى على أدق تفاصيل الشريعة؛ وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية. وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبى عليهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل. وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيما بعد عن بذل أي جهد يوم السبت لتدمير أدوات الحصار الذي ألقاه بومبي العظيم على أورشليم، أنه استطاع أن يستولي عليها.

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين، يهود أُخر واسعو الأفق، هم يهود اليسار، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) – الذين لم يكونوا يعتقدون في الخلود. وكان هؤلاء اليهود الأخيرون وهم اليهود الواسعو الأفق، يميلون جميعًا – وإن بدرجات متفاوتة – إلى الامتزاج والاندماج في الإغريق والشعوب "المهلّنة" المحيطة بهم. وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلوا في مذهبهم أتباعًا جددًا، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة. بيد أن ما كسبوه من السماحة وسعة الأفق خسروه في ناحية الاستقامة وحسن السمعة. فهم في "بلاد اليهودية" يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية. ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلّنين فقدوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية.

وظهر في "بلاد اليهودية" في أيام طيبريوس قيصر، معلم عظيم قُدِّر له أن يحرر الإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التي لا تقبل تحديًا ولا جدلاً، والتزامات الإنسان المعنوية نحو الله، وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلفية، – يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع، الذي كان يخالطها في الذهن اليهودي على أبلغ صورة خارقة. كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصري، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها.

٢- تعاليم يسوع (عيسى الناصري)

إن الجمهور الذي سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم، سيكون معظمه من المسيحيين، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من اليهود، والأولون على أقل تقدير، يعدون يسوع الناصري شيئًا أعظم كثيرًا من مجرد معلم من البشر، كما يعدون ظهوره في العالم ليس حدثًا طبيعيًا في التاريخ بل شيئًا إعجازيًا خارقًا، يعترض ويغير ما للحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى "وعي مشترك وإرادة مشتركة" ويحول عن سبيله – الأمر الذي ما برحنا حتى الآن نقفو أثره في هذا الكتاب. بيد أن هذه المعتقدات على ذيوعها في أوربا وأمريكا، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشري، ونحن إنما نكتب هذه "المعالم" في التاريخ الحياة، مجانبين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلاً. كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقرعون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون في عددهم من يقرعونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين. لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكًا دقيقًا ونجانب – دون أية منازعة أو إنكار – كل الشروح اللاهوتية التي فرضت عليها فرضًا.

وسنخبرك بما اعتقده الناس في يسوع الناصري، أما هو فإنّا سننظر إليه كما بدا، أي بوصفه بشرًا على نحو ما يفعل المصور تمامًا حيث يلتزم حين يصوره إظهاره في صورة البشر. وسنعالج الوثائق التي تدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية. فإذا سطع ضياء الألوهية من خلال تلاوتنا لها، فلن نعينه ولن نحجبه. وهذا هو ما فعلناه آنفًا في حالة بوذا، وهو ما سننهجه قريبًا مع محمد (ﷺ). فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ. وليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية.

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصورًا في الأناجيل الأربعة (Gospels)، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين، ومن الإشارات إلى حياته في رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل، ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى، متّى ومرقص ولوقا، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز؛ كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هليني قوي. ويميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة. بيد أن الأناجيل الأربعة جميعًا تتفق في إعطائنا صورة لشخصية واضحة الحدود تمامًا. وهي تحمل من الاقتناع بصحتها نفس ذلك الاقتناع الذي تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول "إن هنا لإنسانًا حقًا. إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيال والاختراع".

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التي عليها وثن البوذية المتأخرة المُذَهَّب، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيرًا ذلك الجو الوهمي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الحديث تبجيل خاطئ من رسّام تقي قانت. كان يسوع معلمًا ذا خصاصة، يتجول في "بلاد اليهودية" المتربة اللافحة الشمس، ويعيش على هبات عرضية من الطعام؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفًا ممشط الشعر مرجّله صقيل الإهاب، نقي الثياب مستقيم العود، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء. وهذا وحده قد جعله وهمًا لا يؤمن به الكثير من الناس، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحسين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين بغباء.

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز. فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع: ذلك النجم العظيم الذي جلب الحكماء من الشرق ليعبدوا الله عاكفين عند مهده بالمِذْوَد، ومذبحة الأطفال الذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر، والهرب إلى مصر، إنما هي أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة. وهي في خير أحوالها حوادث لا ضرورة لها للتعاليم، وهي تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردها متى ولوقا، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود، كأنما كان شرفًا ليسوع أو لأي إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه. وإدخال هذه الأنساب أشد إمعانًا في الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابنًا ليوسف بتاتًا، إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية.

فإذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة، وجدنا أنفسنا إزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الجد مرهف العاطفة والحساسية، عرضة للغضب السريع، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة: هي أبوة الرب العامة المحبة ومجيء مملكة السماء. وغني عن البيان أنه كان شخصًا – إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادي – ذا جاذبية شخصية بالغة القوة. فكان يجتذب إليه الأتباع ويملؤهم بالحب والشجاعة. وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرءون مما بهم، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة، استنتاجًا منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب. وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغمي عليه عندما كلف بأن يحمل صليبه إلى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف. وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول مرة يعلم الناس. وظل يجوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه، ثم هبط أورشليم، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة في "بلاد اليهودية"، وحوكم بهذه التهمة، وصلب مع اثنين من اللصوص. وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت.

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جدًا. إذ لا يوجد في هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه، ما يدعم ويؤيد كثيرًا من تلك المبادئ التي يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص. فإن سندها من الأناجيل غالبًا ما يكون سندًا غير مباشر ومعتمدًا على الإشارة. ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيدًا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة. وفيما عدا بعض فقرات تدور حولها المنازعات، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسّر فيها مبادئ الكفّارة والفداء أو حض فيها اتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس [1] (Sacrament) (وهي أعباء وظيفة رجال الكهنوت). وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد، العالم المسيحي بأسره. وليس هناك من دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ. كذلك لا يبرز هو دعواه أنه "المسيح" ولا يضفي على اشتراكه مع الله في الربوبية أي ثوب بارز ربما أحسسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان يراه أمرًا في الدرجة الأولى من الأهمية.

ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى: الإصحاح ١٦ – ٢٠): "حينئذ أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح" فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع [2]، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص.

ثم إن مراعاة طقس السبت اليهودي، وهو الذي استبدلوا به الأحد الميثرائي [3]، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية، على أن يسوع لم يرعَ السبت معتمدًا وقال إنه خلق لأجل الإنسان، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت. وهو لم يفُه بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم في صورة إيزيس مليكة السماء، كما أن الكثير مما هو من أخص خصائص المسحية في العبادة والطقوس لقي منه إغضاءً تامًا. ولقد بلغ من جرأة الكتّاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحيًا على الإطلاق. ويجب على كل قارئ أن يلجأ إلى مرشديه الدينيين ليستضيء بهديهم في هذه الثغرات الخارقة في تعاليمه. ونحن ها هنا ملزمون بأن نذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات، كما أننا مضطرون أيضًا ألا نتوسع فيها.

ومما يسترعي الأنظار أيضًا، تلك الأهمية الهائلة التي يضفيها يسوع على الفكرة التعليمية التي أسماها "مملكة السماء"، وعدم أهميتها النسبية في إجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية.

---

(1) على أن السيد المسيح عليه السلام: "أخذ خبزًا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم: اصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢ : ١٩). (المترجم).

(2) كان المنع لحكمة، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدي إلى إيقاف الصلب، والصلب وسيلة الخلاص. (المترجم).

(3) انظر المعالم جـ ٢ ط٣ ص ٥٤٥، ٦٣٣. (المترجم).

إن هذا المبدأ، مبدأ مملكة السماء، الذي كان رأس تعاليم يسوع، والذي يلعب دورًا ضئيلاً جدًا في العقائد المسيحية، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية، التي قدر لها – أبد الدهر كله – أن تحرك الفكر الإنساني وتغيره. فلا غرو إذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل – وتراجع يائسًا مرتاعًا ناكصًا عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات الجنس البشري ونظمه الراسخة. ولا عجب أن المسيحي الحديث والتلاميذ الجدد المترددين ينقلبون من فورهم إلى الفكرات المألوفة القديمة: فكرات المعبد والهيكل والآلهة الشرسة، ومرعيات الاسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية. ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة، حياة الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار. ذلك أن مبدأ مملكة السماء، كما يلوح أن يسوع كان يبشر به، لم يكن ليقل عن طلب جريء لا هوادة فيه ينادي بإدخال تغيير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل، أي إحداث تطهير شامل مطلق في جوانية الناس وبرانيتهم [1]. وعلى القارئ أن يرجع إلى الأناجيل ملتمسًا كل ما تبقى من هذه التعليمة الهائلة. فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التي أحدثتها في الفكرات الوطيدة القائمة.

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله، الرب الأوحد للعالم بأسره – رب بر وهدى، بيد أنهم زعموه كذلك ربًا متّجرًا، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها، وهي لا جرم صفقة طيبة جدًا لهم، هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض. ولشد ما كان ارتياعهم وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات، إذ يعلّم الناس أن الله ليس من المساومين. وأن ليس هناك شعب مختار، ولا أحظياء في ملكوت السماوات. وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات وعدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء. وأن الناس جميعًا إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون لذلك الأب القدوس. وإن يسوع في ضربه للناس مثل ذلك السامري الطيب، قد ازدرى ذلك الميل الطبيعي الذي تخضع له نفوسنا جميعًا، والذي ننزع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الحط من شأن ما لدى النِّحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر. وإنه في المثل الذي ضربه عن العمال قد اطّرح تلك الدعوى العنيدة التي يدعي بها اليهود بأن لهم ضربًا من حق الرهن الأول على الله جل جلاله. فالله – كما علم السيد المسيح – يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت. فليس هناك تمييز في معاملته إذ ليس لفضله وطيبته من حدود. وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعًا ببذل أقصى ما في مستطاعهم – كما يشهد المثل الذي ضربه عن "الوزنة المدفونة" وكما تعززه حادثة فَلَس الأرملة. وليست هناك أية امتيازات ولا خصم في الأسعار ولا معاذير في مملكة السماء.

---

(1) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك". (المترجم).

بيد أن يسوع لم يقتصر فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها، فإنهم كانوا أيضًا شعبًا ذا ولاء عائلي شديد، وذلك بينما كان يسوع يبتغي أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة. فلم يكن بد لمملكة السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه. ويحدثنا الإنجيل أنه "وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه. فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي!! لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي"، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر ٤٦ – ٥٠).

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلي باسم أبوّة الله العامة وأخوّة الجنس البشري أجمع، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادي من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. فالناس جميعًا ينتمون إلى الملكوت؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت؛ والحياة الصالحة البرة لكل الناس، الحياة البرة الوحيدة، إنما هي في خدمة إرادة الله بكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان. ولطالما شهّر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة، كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الخاصة.

"وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجاء له، وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك. فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب. فاغتم على القول ومضى حزينًا لأنه كان ذا أموال كثيرة.

"فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: ما أعسر دخول ذوي المال إلى ملكوت الله! فتحير التلاميذ من كلامه. فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم: يا بني، ما أعسر دخول المتكّلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله" (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ١٧ – ٢٥).

وفضلاً عن ذلك فإن يسوع في نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذي يجمع الناس كلهم ويجعلهم فردًا واحدًا في الله، كان يضيق صدرًا بما في الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة.

وهناك أيضًا جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحياة التقى. "واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم. ولما رأوا بعضًا من تلاميذه يأكلون خبزًا بأيد دنسة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ. ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون. وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرّة. تم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزًا بأيد غير مغسولة. فأجاب وقال لهم: حسنًا تنبأ إشَعْياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب. هذا الشعب يكرمني

بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عني بعيدًا. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس. غسل الأباريق والكئوس وأمورًا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون. ثم قال لهم: حسنًا، رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم" (إنجيل مرقس. الإصحاح السابق ١ – ٩).

كذلك أيضًا، نستطيع أن نلحظ عشرات المواضع التي ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المستمسكين بالشكليات، وأعني بها رعاية السبت.

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية. فإن من الواضح من عشرات الدلائل، أن تعاليمه كان لها طابع سياسي من أبسط الأنواع وحقًا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة في قلوب الخلْق، وليست فوق عرش؛ ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته وأيًا كان المدى الذي تقوم به في قلوب الخلْق، فإن العالم الخارجي يتجدد ويحدث له انقلاب ثوري بنفس ذلك المدى بالضبط.

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمايتهم، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثوري في العالم. وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أدلى بها، تمكننا من أن نحدس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة. فإن نزعته الصريحة في مهاجمته السياسية تتجلى في حادثة كحادثة العملة.

"ثم أرسلوا إليه قومًا من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة. فلما جاءوا قالوا له: يا معلم، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ نعطي أم لا نعطي؟ فعلم رياءهم وقال لهم: لماذا تجربونني؟ إيتوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له لقيصر. فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (إنجيل مرقس. الإصحاح الثاني عشر ٢٣ – ١٧)، وهي قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علَّمه، لم تبق لقيصر إلا الشيء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون..

وإن الجو الذي يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه في صورة من يقترح صراحة – بل من قد اقترح فعلاً صراحة – تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها. ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدركوا المغزى العميق الشامل الذي ينطوي عليه ذلك الاقتراح. إذ كان لا يزال يغشي على عقولهم الحلم اليهودي القديم بملك أي مسيح يقضي على سلطان أسرة هيرودس المهلنين والسيد الأعلى الروماني، ويسترجع أمجاد داود الأسطورية ولعمري لقد أغفلوا مادة تعاليمه، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى الغاية؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفذة للبدء في المغامرة التي ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم. فزعموه مجرد ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لها، ولكن من طراز شبه سحري ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة.

"وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين: يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا. فقال لهما: ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له: أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك. فقال لهم ا يس وع لستما تعلمان ما تطلبان، أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟ فقالا له نستطيع، فقال لهما يسوع: أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، وبالصبغة التي أصطبغ بها أن ا تصطبغان. وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعِدَّ لهم. ولما سمعوا العش رة ابتدءوا يغتاظون من أجل يعقوب ويوحنا. فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يُحْسَبُونَ رؤساء الأمم يسودونهم وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يصير فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبدًا. لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأت ليُخ دَم ب ل ليَخْ دُم. وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ٣٥ – ٤٥).

كان هذا أسوأ عزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لخدماتهم ومتاعبهم التي يلاقونه ا ف ي اتباعهم إياه. فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الخدمة كانت في حد ذاتها ه ي جزاءها العظيم الأوفى. ومع ذلك فإنهم حتى بعد وفاته على الصليب، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد انقش اع ذعرهم الأول، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع العالم القديم عالم الأبه ات والامتي ازات. وأنه سوف يبعث حيًا من فوره بإحدى عجيبات المعجزات، ويعود ويقيم عرشه بالأبهة العظيم ة والس ماحة الفياضة في أورشليم. لقد ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة.

كان أعظم من أن يصل إلي إليه فهم تلاميذه. وهل يعجب القارئ – بالنظر إلى ما قال ه ص راحًا – أن يشعر كل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولهم بسبب تعاليمه؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن مما فهمه أتباعه. ذلك بأنه كان يس تخرج دف ين مدخراتهم الصغيرة الخاصة التي كونوها من الخدمة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ض وء حي اة ديني ة عامة. كان أشبه شيء بصياد أخلاقي رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من جحرها الدفيء الذي عاش ت فيه حتى ذلك الحين. وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه، لم يكن يج وز وج ود أي ة ممتلك ات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية). ولعمر الحق ما كان فيها من حافز ولا جزاء إلا المحب ة. أفمن العجيب إذن أن انبهر منه القوم وعميت عيونهم فتصايحوا كلهم عليه؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تص ايحوا ب ه عندما رفض أن يعفي أعينهم من ساطع الضياء. أفمن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يك ن ب ين ه ذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين، وقد واجهه م وأذلهم شيء يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمتهم، يلوذون بالضحك الضاري، ويتوج ون هامت ه بالش وك ويضعون عليه ثوبًا أرجوانيًا ليتخذوا منه قيصرًا سخريًا؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجد، كان معناه الدخول في غمار حياة عجيبة رهيبة، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز وال دوافع، ومحاول ة درك س عادة لا يصدقها عقل.

أفمن العجيب أنه حتى هذا اليوم، ما يفتأ هذا الجليلي أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة؟

٣- الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فمما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيرًا من الأشياء التي لا يستطيع أن يقبلها غني أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطوري أو أي مدني عادي محترم إلا وألمّ بطرائ ق حياتـ ه انقلاب هائل يقلبها رأسًا على عقب، فلم يكن منها شيء لا يبادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممـ ن يتبعـ ون تعاليم جوتاما ساكيا الحقة، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذي بدائي وبين أن يكون نصرانيًا، وكذلك ما مـ ن شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة.

وإليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو "موتي" [١]، الذي كان يعيش في زمان ما في القرن الرابع ق. م، وقت ما كانت تعاليم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة في الصين، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد، فتأمل نغمتها وانظر كم هي نصرانية الروح.

"إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى؛ والسرقات المتبادلـ ة بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء؛ والحاجة إلـ ى الحنـ ان والواجـ ب البنوي بين الوالد وولده – هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية. وكل هذا راجع إلـ ى انتفـ اء الحـ ب المتبادل. فلو أمكن فقط أن تعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة، فلن يصبح للأمراء – وقـ د أحـ ب أحـ دهم الآخر – أي ميادين للقتال؛ ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أي شيء غصبًا؛ ولن يرتكب الرجال أيـ ة سرقة؛ ولاتصف الحكام والوزراء بالسماحة والولاء؛ ولأصبح الآباء رحماء والأبناء بررة؛ ولصار الإخـ وة منسجمين وأمسى التراضي بينهم هينا. ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا، لمـ ا انقـ ض قـ ويهم علـ ى ضعيفهم؛ ولما نهبت كثرتهم قلتهم، ولما أهان غنيهم فقيرهم، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم، ولما غش خبهم [٢] بسيطهم [٣] ".

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصري، وإن صب في قالب سياسي. وهكـ ذا اقتربـ ت أفكار "موتي" من ملكوت السماء.

وهذا التطابق الجوهري هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين. فـ إن بـ داياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعـ الم معروفة الحدود واللاعبة في مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥,٠٠٠ ق. م و٦٠٠ ق. م دورًا عظيمًـ ا كل العظم هاما كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م دورًا عظيمًا كل العظم هامًـ ا كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م فصاعدًا، فهي بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوي الشامل. وهي التي جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة التي خدمت حاجة الإنسانية، منذ

---

(١) عن "موتي" انظر للمترجم كتاب "التاريخ وكيف يفسرونه" الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر. (المترجم)

(٢) الخب: بكسر الخاء هو الغشاش الخادع . (المترجم)

(٣) نقلاً عن هيرث (The Ancient History of China) الفصل الثامن.

أن تلاحمت المجتمعات الإنسانية بعضها في بعض بعاملي الخوف والرجاء. وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسي الجديد، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عام من جميع الناس "لإرادة" واحدة. على أن محمدًا اتعظ بما مر بالمسيحية من تجاريب، فكان حاسمًا باتًا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشرًا كغيره من الناس، وبذا وقى تعاليمه شرًا كثيرًا من الفساد والتصحيف.

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه، التي نشأت فيما بين غزو الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية، – إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة. على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكدس فيها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلي، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير. وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى، أو قيام أي بديل جديد يحل محلها جميعًا، بل إلى الصدق الصراح في كل منها، بعد إذ يصهر تمامًا ويخرج نقيًا من كل الشوائب والأدران ويغدو فيهن جميعًا هو نفس الصدق الواضح المبين: – وأعني بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعًا، يجب أن تخضع "لإرادة" عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعًا. ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة الجريئة:

"إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين، وأعني بذلك أن "بشارة المسيح" ليست "إحدى" الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شمولاً وعمقًا".

ومع أن الحماقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بين العلم والدين، فإن الحق أن ذلك التضارب شيء لا وجود له. فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية بطريق الوحي والاستبصار، إنما هو شيء يكشف فيه التاريخ مع ازدياد وضوحه، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه – حقيقة معقولة يمكن إثباتها: هي أن الناس جميعًا يكوّنون أخوّة واحدة عامة، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك على هذا الكوكب الصغير السابح بين النجوم. وإن العالم النفساني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظ ويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولا توازن ولا أمان للروح، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها، وما لم يدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها. ولا يخفى أن جنسنا وتجاربنا الدينية الشخصية يسيران جنبًا إلى جنب في تحاذ وثيق يخيل معه للمشاهد العصري كأنما هما شيء واحد تقريبًا فكلاهما يتحدث عن كائن كان في بادئة أمره مشتتًا تحجب العماية عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك، وهو يتحسس طريقه في بطء سائرًا نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف منظم متماسك. ولعلكم ترون معي أن هذه هي معالم التاريخ في أبسط صورها؛ وسواء كان للمرء هدف ديني، أم كان ينكر كل هدف ديني إنكارًا باتًا، فإن خطوط المعالم تظل كما هي.

٤- صلب يسوع الناصري

في ٣٠ م حين كان طيبريوس الثاني إمبراطورًا على روما، وبيلاطس البنطي واليًا على بلاد اليهودية، وقبل عيد الفصح بقليل، هبط يسوع الناصري إلى أورشليم. والراجح أنه هبطها عند ذاك لأول مرة في حياته. إذ كان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم في الجليل، ويعظهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها. يعظهم هناك في معبد اليهود.

كان دخوله مدينة أورشليم نصرًا سلميًا. إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من الأتباع، وكان يضطر في بعض الأحايين أن "يعلم" الناس من زورق في بحيرة الجليل، بسبب تزاحم الجمهور على الشاطئ – وتسامع الناس به وساقته شهرته إلى العاصمة. فخرجت جماهير غفيرة لتحيته. وواضح بيّن أنهم لم يفهموا منحى تعاليمه، وأنهم كانوا يشركون من حولهم في اقتناعهم العام، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح. وقد دخل المدينة راكبًا جحشًا استعاره له تلاميذه، والجمهور يرافقه رافعًا صوته بالتهليل والتكبير هاتفًا بكلمة (أوصنّا!! Hosanna) وهي لفظة تعبر عن الفرح.

فذهب إلى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكي يحرره زوار المعبد الأتقياء!!! وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم. وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة.

ثم استمر يعلم الناس في أورشليم أسبوعًا يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمرًا عسيرًا. ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع. ذلك أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الجزع واليأس قلبه لما شهده في استيلاء معلمه على أورشليم من قلة غناء وجدوى، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته في القبض على يسوع. فكوفئ على تلك الخدمة بثلاثين قطعة من الفضة. وكان لكبير الكهنة ولليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوادع الذي كان يملأ الشوارع بالجماهير المنفعلة، فمن الجائز مثلاً أن يسيء الرومان فهم الأمر، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودي كافة. ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Caiaphas) – في بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الروماني الأعلى – على رأس من قاموا بالإجراءات التي اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع.

وتحدثنا الأناجيل في جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه في ضيعة جثسيماني (Gethsemane)، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطي الوالي الروماني، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha).

بذلك انهارت الثورة انهيارًا تامًا وتخلى عنه تلاميذه عن بكرة أبيهم، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال "إني لا أعرف الرجل". إذ لم تكن هذه هي النهاية التي كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم. ولم يشهده في ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعاني مرارة الألم المبرّح والظمأ الشديد، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأدنين. حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته، استجمع ذلك الزعيم الذي تخلى عنه الناس جميعًا كل قواه باذلاً آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير "إلهي! لماذا تركتني؟" ثم أسلم الروح مخلفًا هذه العبارة ترجعها العصور، أحجية أبدية للمؤمنين.

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهوّلوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المأساة، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات في الطبيعة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اهتداء جوتاما إلى الصراط السوي. فإنهم يخبروننا أن ظلمة قد غشيت الأرض... وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقًا، فهي لم تحدث أقل تأثير في أذهان الناس في أورشليم في ذلك الزمان. ومن العسير علينا في هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغماس في مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث. ولكن الشيء الأشد هولاً من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيما يظهر بهذه الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المساء امقاني، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين. وأرخى الظلام على التل سدوله. وشرعت المدينة البعيدة في القيام باستعداداتها لعيد الفصح؛ وما من أحد سوى ذلك النفر القليل من المخزونين العائدين إلى منازلهم يُعنى بأمر يسوع الناصري هل هو لا يزال يعاني سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل...

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة. ثم ما لبثوا أن دب بينهم تهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد... بأن جسم يسوع ليس في القبر الذي وضع فيه، وأن واحدًا منهم ثم آخر قد رآه حيًا. وسرعان ما أخذوا يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور، وأنه أظهر نفسه للكثيرين، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء. وجيء بشهود أعلنوا بلهجة التأكيد القاطع أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرًا للعيان. لقد ذهب يطوي طباق السموات الزرقاء – إلى الرب. وسرعان ما ألقوا في روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره، في قوة ومجد ليحكم البشرية كافة. وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة؛ على أنهم – وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم البراق بمجد دنيوي يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك النصيب الأعظم، النصيب الهائل الجبار الذي خولهم إياه يسوع من ملكوت الله.

٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة الكفاح بين التعاليم الحق ـة والـ روح المحـ ض ليسـ وع الناصري وبين التحديدات التي فرضها، والإطنابات والزيادات التي أضافها، والمسائل التـ ي أسـ اء فهمهـ ا، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا في إثره من الجليل، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية. وتقدم إلينا الأناجيل وأعمال الرسل سجلاً مرقعًا غير متوازن، ولكن لا مجال للشك في أنه في جملته سجل تام الأمانة في تصوير تلك الأيام الأولى.

والناصريون الأوائل وهو الاسم الذي كان يطلق على أتباع يسوع، يتخبطون منذ البدايـ ـة فـ ـي غمـ ـرات الحيرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران: تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلاميذ من ناحية أخـ ـرى مـ ـن صـ ـنوف الشروح والتفاسير. وقد أقاموا من بعده زمانًا عاملين بسنته في قهر النفس التام؛ فجعلوا بضـ ـاعتهم مشـ ـاعًا بينهم، ولم يتخذوا رابطة تربطهم إلا الحب. ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص التي كانت تدور حول قيامته وصعوده السحري الخلاب، وحول عودته الموعودة. وقلَّ منهم من كان يفهم أن التبرؤ من النفس ونبذها هو جزاؤها بعينه، وأنه هو نفسه مملكة السماء؛ وكانوا يعدون ذلك التبرؤ قربانًا يخوّلهم جـ ـزاءً مـ ـن القوة والسيادة، عندما تحدث العودة الثانية عما قليل. وقد أصبحوا جميعًا يـ ـرون أن يسـ ـوع هـ ـو المسـ ـيح الموعود، ذلك المسيَّا الذي طالما انتظره الشعب اليهودي. واكتشفوا في أقوال الأنبيـ ـاء تنبـ ـؤات بالصـ ـلب - ويشدد إنجيل متى بصفة خاصة في تأكيد هذه التنبؤات. وأنعشت هذه الآمال المبـ ـادئ النصـ ـرانية، وشـ ـدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يحياها كثير من المؤمنين، فأخذت تنتشر انتشارًا بالغ السرعة فـ ـي أرجاء بلاد اليهودية وسوريا.

وظهر للوقت معلم آخر عظيم، يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية - وهـ ـو شـ ـاءول الطرسوسي أو بولس. ويظهر أن شاءول هو اسمه اليهودي وأن بولس هو اسمه الروماني. كان مواطنًا رومانيًا، ورجلاً أوتي علمًا أوسع كثيرًا وعقلية أضيق كثيرًا مما يبدو أن قد أوتي يسوع. والراجح أنه كان يهودي المولد، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك. ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود. بيد أنه كان متبحرًا في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية [1] وكانت لغته الإغريقية. ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القـ ـديم أن لغتـ ـه الإغريقية غير مرضية؛ فهو لم يستخدم لغة أثينا، بل إغريقية الإسكندرية، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة. وينعتها البروفسور جلبرت موراي بأنها "بالغة الجودة".. "وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism). على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش". كان صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل، وهو في رواية العهد الجديد يبدو بادئ ذي بدء في إهاب الناقد المرير، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعًا.

([1]) يفرق المؤرخون بين العصر الهيليني السابق على الإسكندر والهيلينستي الذي يجيء في تاريخ الإغريق بعد وفاة الإسـ ـكندر إلى ظهور أوغسطوس قيصر. (المترجم).

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أي بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح من أتباع يسوع. ولا بد أنها كانت أساسًا لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة لونًا خاصًا. وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حول تعاليم عمالائيل، الذي يقولون إنه هو المعلم اليهودي الذي كان بولس يجلس عند قدميه. كذلك لسنا ندري ما هي التعاليم غير اليهودية التي درسها. ومن الراجح جدًا أنه تأثر بالمثرائية. إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية. ويتضح لكل من يقرأ "رسائله المتنوعة، جنبًا إلى جنب مع الأناجيل، أن ذهنه كان مشبعًا بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانًا لله كفارة عن الخطيئة. فما بشر به يسوع كان ميلادًا جديدًا للروح الإنسانية؛ أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلبًا لاسترضاء الإله. كان يسوع في نظره حمل عيد الفصح، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة [1]. أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تمامًا لكارثة الصلب. وكان تفسيره ذاك نورًا ساطعًا سلط على دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس.

ولم ير بولس يسوع قط. ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعًا عن التلاميذ الأصليين. ومن الجلي أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء، لا تبرح فتنته إلى اليوم تستهوي العقول "فكريًا" بصفة رئيسية. ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدها على صورة مبدأ للحفز والإثارة وأسلوب للعيش، قد تحولت على يديه إلى مذهب "إيمان". ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح ورجاء؛ وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة.

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى "أعمال الرسل" و "رسائل بولس"، ليحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه. كان رجلاً هائل الطاقة والنشاط، وقد علم الناس في أورشليم وأنطاكية وأثينا وكورنثوس وإفيسوس وروما.

ويحتمل أيضًا أنه انحدر إلى إسبانيا. وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه التحقيق، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون. فقد شب حريق عظيم أتى على قسم كبير من روما، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت في ذلك الحريق. ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأي رجل آخر بمفرده. فلم تكد تمضي على صلب المسيح عشرون سنة، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان في ولايات عديدة. ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسوع من السمة الثورية والبدائية. وقد أصبحت أكثر تسامحًا نوعًا ما مع الملكية الخاصة، وأصبح في وسعها أن تقبل

[1] يشير المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والساكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعالم ج١، ص ١٧٧، ط٣) (المترجم).

نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعًا، واغتفر القديس بولس نظام الرق عندما قال: "أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم" [1]، ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهرية في العالم الروماني. فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر. فلم يقبل المسيحيون قط أن يعبدوا الإمبراطور، حتى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح، رغم ما في ذلك من تعريض حياتهم للخطر. وإنها لتستنكر حفلات المجالدين [2]. وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية، بدت منذ مستهلها في ثوب ثورة صريحة، تكيل الضربات للأسس الجوهرية للنظام الإمبراطوري السياسي إن لم يكن الاقتصادي. وأول ما نجد في الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية، يبدو عندما أخذ الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الغريبة الماثلة بين أيديهم، مشكلة ذيوع عدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيما عدا ذلك من شئون الدنيا.

ويغشى الغموض التام شطرًا كبيرًا من تاريخ المسيحيين في القرنين الأولين من الحقبة المسيحية. فمع أنهم انتشروا في كل أرجاء العالم، فإنا لا نعرف إلا القليل النادر من فكراتهم أو طقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان. ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات محلية كبيرة في معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر. ولكن مهما يبلغ ما بينهم من فوارق محلية، فيلوح أنهم كانوا في كل مكان يحملون الشيء الكثير من روح يسوع. ومع أنهم كانوا حيثما حلوا أثاروا ضدهم عداء مريرًا ودعاية مضادة قوية، فإن نفس التهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام.

وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أي التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس [3]. ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلاً من يوم السبت اليهودي، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعمال الشموع في الحفلات الدينية، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعني القسس)، كما اقتبسوا أيضًا فيما يرجح، تلك الفكرات أو العبارات التي لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والتي تتكلم عن "الاغتسال في دم" المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم. ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلبًا، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق؛ فتصوير يسوع في صورة المراق دمه من أجل البشرية، إنما هو في الحقيقة من أشد العبارات بعدًا عن الدقة. ونحن وإن تذكرنا أنه لقي التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجًا من الأشواك، وأن جنبه قد طعن بحربة، فإنا لا نزال أبعد ما نكون عن "نبع يفيض دمًا". بيد أن المثرائية، وكانت

(1) كانت روح يسوع، الروح الباعثة للحياة في المسيحية، والتي تسري في الأناجيل، تتعارض تعارضًا تامًا مع كل من الملكية الخاصة والرق، إلا أن اتجاه المسيحيين، لم يتعين إطلاقًا بمثل هذا التحديد. وكانوا في الغالب أميل إلى التخفيف منهم إلى الإلغاء. (المؤلف).

(2) المجالد Gladiator، شخص، وبخاصة عبد أو أسير، يقاتل حتى الموت (في المجتلد Arena) أو إنقاذ الحياة، لإمتاع الجماهير بروما القديمة. (المترجم).

(3) سيرابيس كان مركبًا من أوزيريس وأبيس (انظر ج ٢ ص ٣٨٨ من المعالم). (المترجم)

تتركز حول بعض الخفايا التي عفى عليها اليوم النسيان، تتخيل مثرا وهو يضحي بعجل مقدس خير. ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصورة لمثرا وهو يذبح ذلك العجل، الذي ينزف دمه نزفًا عظيمًا من جرح في جنبه، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة. وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل في دم عجل التضحية، وبذلك "يولد من جديد". وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها، فيسيل عليه دمه. ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استمرارًا لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقت البذار، وهي فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد.

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرًا أو يكاد. إذ كان طبيعيًا أن يجد المسيحيون في شخصية حورس، (الذي كان ابنًا لسيرابيس وهو سيرابيس في نفس الوقت)، شبيهًا مرشدًا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا. وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس. ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية – بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته – خطوة طبيعية جدًا كذلك. وكان طبيعيًا كذلك للمسيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي، الطرائق العملية للديانات الشائعة في ذلك الزمان. فاتخذ قساوستها طريقة الرءوس الحليقة والزي الخاص بالكهنة المصريين، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس. وتتابعت البدع واحدة في إثر الأخرى. وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك "الإضافات المألوفة". ولقد حاولنا من قبل أن نتصور عودة جوتاما بوذا إلى التبت، واندهاله لعبادة تمثاله في لهاسا (Lhassa). ولو أن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوي من السفر في وهج الشمس اللافح بالجليل، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلاً قداسًا في كنيسة القديس بطرس بروما، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عندما يعلم أن تلك الخشكنانة (القربان) الموجودة على المذبح إن هي إلا معلمه المصلوب.

والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والطقوس. وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح. ولكن ذكاء بوليس المتوقد أحاط سيرته بالأهمية المستبقية. وكان يسوع دعا الناس رجالاً ونساء إلى أداء واجب جبار: هو إنكار الذات والميلاد الجديد في مملكة المحبة. وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المسيحي أن تجد في ديانته أن يفر بعيدًا عن هذا المبدأ البسيط الصريح، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة، – إلى الغوص في مسائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأي حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاته بالدم ومن أن يطهر نفسه من الحقد والمنافسة؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعيًا أنه قد امتص الألوهية؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب، وأن يحلق الرأس ويستبقي النفس الأمارة بالسوء المستقرة في داخله!! كان العالم غاصًا بأمثال هذه الفلسفة التهربية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقبة المسيحية. وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplationism)

(١) والأدرية (٢) (Gnosticism) والفيلونية (Philonism) (٣) وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندراني. بيد أن الواقع أنه كان كله عالمًا واحدًا، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول. وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين (Augustine) – بحركة الأخذ والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان.

وقد سمى يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضًا؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه: من هو؟ أو ما هو؟ وإن اشتد تركيزه كثيرًا على التعاليم المتعلقة بالملكوت. وعندما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله، فإنهم – أخطئوا أم أصابوا – قد فتحوا ميدانًا هائلاً من الجدل. فهل كان يسوع ربًا؟ أم أن الرب خلقه؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الغرب. حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل الملتوي الخدّاع حول طبيعة الله – بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة، تعاليم الإحسان والأخوّة والخدمة التي طبعها يسوع في العقول مرارًا وتكرارًا.

وأهم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Arians) والسابيلية (٤) (Sabellians) والثالوثية (Trinitarians). وكانت الآريوسية تتبع آريوس الذي كان يعلم أن المسيح كان أقل منه إله، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله – فالإله هو الخالق والمخلص والمواسي، كما يكون الرجل الواحد أبًا وقيمًا وضيفًا؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس، أقانيم ثلاثة مميزة، بيد أنها إلى واحد. وإنا لنرجع القارئ إلى عقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير، ويطلب فيها النتائج المزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها!!. ويجب عليه أن يرجع إلى جيبون (٥) إن شاء بيانًا عن هذه الخصومات ملؤه السخرية والتهكم. على أن الكاتب الحالي لا يسعه إلا

---

(١) الأفلاطونية الحديثة: مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية، وهي فلسفة أفلوطين، الذي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث. (المترجم).

(٢) الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة، ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية، وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط. ويرى الأغنسطيون أن لهم علمًا باطنيًا بالمعنى الداخلي للديانة. وهو المعرفة التي يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنارة والخلود . (المترجم).

(٣) الفيلوثية: نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إغريقي من أصل يهودي ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق. م أو فلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر في المؤلفات المسيحية. (المترجم).

(٤) السابيلية هم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذي كان يرى أن الله لا ينطوي إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثًا من الوظيفة والإظهار. (المترجم).

(٥) أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر (في ١٩٦٩ – ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم. فليرجع إليها القارئ. (المترجم).

أن يعالجها دون أدنى رهبة ولا سخرية. وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مـ دمر تهدر مراجله في العقل البشري وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لا تتسق بتاتاً مع تعاليم يسـ وع البسـ يطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل. ولم يعد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شـ رطاً لازمـً ا للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب، بل لمزاولة التجارة بين المسـ يحيين والحصـ ول علـ ى المعونـ ة المسيحية كذلك. فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معنـ اه ثـ راء رجل أو إدقاعه. ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان، دون أن يشعر شـ عوراً قويـً ا بتحكم الاتجاه الاعتقادي (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفيهقات بالرجال الـ ذين مزقـ وا المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة. ومعظم المجادلين الثالوثيين – إذ إن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية – يتهمون خصومهم (وبحق ما يتهمونهم في الغالب) بأن لهم دوافع دنيئة أخـ رى خفية. بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام. مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلاً بأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة)، لأنه لم يعين أسقفاً على الإسكندرية. وكانت الفتن والحرمانات (مـ ن عضـ وية الكنيسة) والنفي تلازم على الدوام هذه الخصومات، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمي آخر الأمر. إذ اختلطـ ت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله، بالسياسة والمنازعات الدولية. وكان الرجال الـ ذين يتنـ ازعون حول أشغالهم، والزوجات اللائي يرغبن في مضايقة أزواجهن، يعتنقون في هـ ذا الموضـ وع الرفيـ ع آراء متضادة. وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسين؛ والراجح أن مرد ذلـ ك هـ و أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة" الثالوثية".

ومن أيسر الأمور على المشكك أن يهزأ من هذه المنازعات. ولكن حتى لو كنا نرى أن هذه المحـ اولات التي ترمي على وجه الدقة إلى تبيين مقدار ارتباط الله بنفسه، فيها من الغرور والجرأة فضلاً عن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها، فإنا على ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقـ ة المخالفـ ة لكـ ل معقول، تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة، كثيراً ما كانت تكمن وراءها عاطفة صـ ادقة تهـ دف نحو الحق، وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه. وكان لكل مـ ن الجـ انبين شـ هداء صـ ادقو الشـ هادة. والحماسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضيعة في غالب الأحيان، إلا أنها جعلت الشـ يع المسيحية على كل حال نشيطة جداً في ناحيتي الدعاية والتعليم. ومع ذلك فينبغي ألا يخدعنا تاريخ الجماعـ ة المسيحية في القرنين الرابع والخامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسـ ة، إذ الواقـ ع أن روح يسوع كانت تعيش فعلاً وتتسامى بأرواح كثيرة بين المسيحيين. وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل، وإن جرى على الراجح التلاعب بها أثناء تلك المدة، إلا أنها لم يقض عليها تماماً، وظل يسوع الناصري في جلال عظمته الوضاحة التي لا تجارى، يعلّم الناس من خلال نصوصها. كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بجهة موحدة ضد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب.

٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبيعيًا أن تعد المسيحية حركة عصيان للدولة وتفكيك لعراها، ما تحدّت ربوبية قيصر والنظم التي تتميز بها الإمبراطورية، والواقع أنها كانت تعد كذلك في نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر. فلقيت عداء جسيمًا، انتهى آخر الأمر إلى بذل محاولات منظمة للقضاء عليها. وكان ديكيوس (Decius) أول إمبراطور أنزل بها اضطهادا رسميًا، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنين) هو حقبة الشهداء العظيمة. والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع النهائي بين فكرة الإمبراطور الرب القديمة وبين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتي كانت تنكر ربوبيته. وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شئون الملك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق؛ وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهورية؛ وهو أول إمبراطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة. فاضطره منطق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان ينكرها إنكارًا صريحًا. وكان الاختيار الممهد للاضطهاد، أن يطلب إلى "المسيحي" أن يقرب إلى الإمبراطور قربانًا.

"ومع أن دقلديانوس الذي لم يبرح نافرًا من سفك الدماء، قد خفف من غلواء جاليريوس الذي اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيًا، إلا أن العقوبات التي وقّعت على المسيحيين المعاندين، يمكن أن تعد من النكال الصارم ذي الأثر البالغ. فصدرت مراسيم تقضي بأن كنائسهم في أنحاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها؛ ثم أنذر بعقوبة الإعدام كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات سرية بقصد العبادة الدينية. واتخذ الفلاسفة في ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية، هي توجيه الحماسة العمياء للدولة في ذلك الاضطهاد؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كدّ وتوفر؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروض أن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسل، فأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كل كتبهم المقدسة إلى الحكام، الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها في هيئة علنية رهيبة، وإلا نالهم شر الجزاء. وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور؛ وكانت الأجزاء المختلفة التي تتكون منها، إما أن تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطورية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط. وبعد اتخاذ مثل هذه التدبيرات الفعالة لإلغاء العبادة، وللقضاء على رئاسة المسيحية، رؤي من الضروري تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء. وكان الأفراد المستنيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكفاء لحيازة الرتب أو تولي المناصب؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرمانًا أبديًا من التطلع إلى الحرية؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون. فقد خول للقضاة الحق في أن ينظروا وأن يقضوا في كل قضية ترفع أمامهم ضد أي مسيحي؛ بيد أنه لم يكن مسموحًا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هدفًا لكل ظلم وعنت، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة. ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز المواضع بنيقوميديا، حتى امتدت إليه يدا مسيحي بالتمزيق المصحوب

بأقذع التنديد والسباب تعبيرًا عن المقت والاحتقار لمثل هؤلاء الحكام الفسقة الطغاة. وكانت جريمت ه طبقً ا لأخف القوانين وطأة، توضع بمنزلة الخيانة العظمى وتجازى بالإعدام فإن صح أنه ك ان رج لاً ذا مرتب ة وعلم، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد في جرمه، وإذا هو يحرق أو قل يشوى على ن ار بطيئ ة. وإذا بجلاديه وقد امتلئوا حماسة للانتقام للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة، يفتنّون في إنزال الع ذاب ألوانً ا بالمسكين دون أن يستطيعوا لصبره قهرًا، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التي ظل محتفظًا بها على محياه وهو في آلام نزعه الأخير". [1]

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول. ولكن ما وص لنا م ن معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدته إنما هو – كما يلاحظ جيبون – موضع الشك الكثير. وهو يق در مجموع الضحايا الكلي بما يقارب الألفين، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهير المس يحيين الحاش دة الذين استشهدوا على أيدي زملائهم في الدين أثناء فترة الإصلاح الديني. ومن المعل وم أن جيب ون ش ديد التحامل على المسيحية، وهو ها هنا يبدو كأنما ينزع إلى التهوين من شأن تجلد المسيحيين وما ع انوه م ن الآلام. ولا مراء أن كثيرًا من المقاطعات أبدت نفورًا عظيمًا في تنفيذ المرسوم. بيد أن السلطات بذلت جه دًا كبيرًا في تصيد نسخ الكتب المقدسة، كما حدث أيضًا في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية. وع ذب وأعدم كثير، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين. ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المس يحي كان يؤلف عنصرًا ضخمًا جدًا بين السكان، وأن نسبة كبيرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا ه م أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة. وكان جاليريوس صاحب الأمر في الولايات الش رقية م ن أش د أنص ار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة، بيد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم، فأصدر مرسومًا بالتسامح، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالي:

"كان من بين الأمور الجوهرية التي أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها، اعتزامن ا أن نص لح ونقيم من جديد كل شيء وفقًا للقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وقد رغبنا رغبة خاصة في أن نهدي إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي اس تنها آب اؤهم؛ واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقدمين، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقًا لما تمليه عليهم أه واؤهم، وجمعوا من حولهم مجتمعًا مخلصًا من مختلف ولايات إمبراطوريتنا. وإذ إن المراسيم التي أصدرناها ل دعم عبادة الآلهة، قد عرضت كثيرًا من المسيحيين للأخطار والمحن، فلقي الكثيرون منهم حتفهم، وترك الأكثرون ممن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحمق محرومين من أي ممارسة عمومية للديانة، فإنا نميل إل ى أن نشمل هؤلاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة. لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية عن آرائهم الخاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا عل ى الاحت رام

---

[1] انظر جيبون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر. وبإشراف أحم د نجي ب هاش م وترجمة محمد علي أبو درة وآخرين، أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر طبعة عربية لطبع ة مختص رة م ن جيبون أصدرها الأستاذ د. م. لو. (المترجم).

اللائق للقوانين والحكومة القائمة. وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا للمسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخ ائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها".

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في دست الملك، يحكم في مبدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم منفردًا بالسلطان (٣٢٤)، فانتهت على يديه أقسى محن المسيحية. ولئن كانت المسيحية قوة عصد يانية مدمرة حيال روما الوثنية، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجالها ومجتمعاتها هي. وأدرك قسطنطين بعبقريته هذه الحقيقة. فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت المسد يحيين جعلـ ت مـ نهم جماعة متعاطفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج حدودها. وأخذت العقيدة في الانتشار مـ ن وراء الحدود من البرابرة، كما امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى. وكانت مصدر الأمل الوحيد للتماسك الخلقي الذي استطاع قسطنطين أن يدركه في حمأة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزامًا عليه أن يحكم من فوقهـ ـا. فهي، وهي وحدها، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتكـ وين "الإرادة" المنظمـ ـة، تلـ ك الإرادة التـ ي كانـ ت الإمبراطورية بسبب حاجتها إليها تتناثر أشلاء تناثر قطعة بالية من القماش. وفي (٣١٢) اضطر قسـ طنطين أن يحارب دفاعًا عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) فوضع طغراء [1] اسـ م المسـ يحية على تروس جيشه وراياته، وادعى أن رب المسيحيين قاتل زيادًا عنه في نصره المبين في معركـ ـة جسـ ر ميلفيان (Milvian) خارج روما بالضبط. وبهذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غـ رور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي. وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكًا، له من الحكـ م المطلق نصيب أعظم مما أتيح لدقلديانوس نفسه. ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسـ يحية الديانـ ـة الرسمية للإمبراطورية، وفي (٣٣٧م) عُمِّدَ قسطنطين مسيحيًا وهو على فراش موته.

([1]) الطغراء: علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابك. (المترجم).

٧- قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر. ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير في زمانه مؤرخًا مثل بلوتارك [١] أو سويتونيوس [٢] (Suetonius) يبقي لنا على تفاصيل زاهية التلوين تتصل اتصالاً وثيقًا بمعيشته الداخلية. أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسماجة. بيد أن واحدا من هؤلاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلا رمزًا لطائفتهم، أو راية حزبية لهم. ويذكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول، كان غير شرعي المولد. إذ كان أبوه قائدًا شهيرًا، على حين كانت أمه هيلانة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب. على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعي. ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجًا وضيعًا؛ وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على نقائص خطيرة تكنفته. فإنه كان من الأميين أو يكاد، وكان يعرف القليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية. ويبدو أنه نفى حقًا ابنه الأكبر كريسبوس، وأمر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبي الفتى؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد ببراءة كريسبوس، وأمر بفاوستا فأعدمت، بأن أُغلي عليها ماء حمامها حتى ماتت - على قول إحدى الروايات؛ وبأن ألقيت للضواري (في رواية أخرى) عارية الجسم على جبل موحش، على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جدًا تدل على أنها عاشت من بعده. فإن كانت أعدمت فعلاً، فإن ذلك لا يؤثر في الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها، أصبحوا ورثة قسطنطين "بالتعيين". وواضح أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه في هذه المعقدات الغامضة، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه "الخبيصة" القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبون الذي دبجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨).

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلاً عفيفًا. وهو يتهمه بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة، كذلك يتهمه بالغرور والخلاعة! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعرًا مستعارًا (ولا يخفى أن جيبون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجًا ملكيًا وثيابًا فاخرة. على أن جميع الأباطرة المتأخرين يعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة.

---

(١) بلوتارك: (ح٤٦ – ١٢٠) كاتب تراجم يوناني حاضر في الفلسفة بروما. وعينه هادريان واليا على اليونان. وكتابه "التراجم المتوازية" فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان. (المترجم)

(٢) سويتونيوس: مؤرخ لاتيني (ازدهر بالقرن الثاني الميلادي) ويعطينا كتابه "حياة القياصرة" معلومات شخصية كثيرة عنهم. (المترجم)

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطياف، ولئن لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام، فإنا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيرًا مما كان يجول في ذهنه. ولا بد أنه كان ذهنًا يشعر بالوحشة الأليمة وهو في خاتمة سني حياته. كان أكثر استبدادًا من أي إمبراطور سابق – أعني أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره، إذ لم يبق لديه أحد من أهل الثقة ذوي الروح الغيرية العامة [1]، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو)، ولا أي مجلس أيًا كان يشاركه وضع الخطط وتطويرها. فإلى أي مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته وإلى أي حد كان يرى الكارثة الشاملة التي كانت عند ذاك وشيكة الحدوث؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين. ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا. وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور لا تزال تبنى. ويلوح أنه – شأن دقلديانوس – قد أدرك انقصام [2] ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام.

وركز اهتمامه على الشئون الخارجية، وعلى الأخص إلى شئون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود. وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية، وأعطاها دستورًا جديدًا وسعى في أن يكوِّن أسرة مالكة. وكان مجددًا لا يهدأ له بال؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور. وهو في هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس. فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة، وأن يحظر عليهم الانفصال عما في حوزتهم من أرض، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالي أرض (Serfs). ذلك بأن الوارد من الأرقاء العمال قد نضب معينه، إذ إن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو. فانقلب يتلمس العلاج في نظام موالي الأرض، واقتضت جهوده الخلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق لها مثيل. وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوي يشعر بالوحدة الموحشة. وتتجلى قوة ابتكاره الأصيلة في فهمه البيّن للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحِّدة التي لا بد منها لتماسك بنيان الإمبراطورية.

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية. فأنفق جهدًا عظيمًا للتوفيق بين هذه الفروق لكي يتسنى له أن يبث في المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية. ويقدم إلينا يوسبيوس (Eusebius) [3] بيانًا عجيبًا عن هذا الاجتماع الغريب، الذي كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحيًا معمدًا لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلسًا في آرل (Arles). جلس الإمبراطور في بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب، وإذ إنه كان رقيق الزاد من الإغريقية، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة

---

[1] يقصد المؤلف بهؤلاء كل شخص يعنى بالشئون العامة وخدمة الجمهور (المترجم).

[2] انقصم الظهر بمعنى انكسر. (المترجم).

[3] يوسبيوس (ح ٢٦٠ – ٣٤٠ م.) هو أبو التاريخ الكنسي. ويعتقد أنه ولد بفلسطين. عين أسقفًا لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دورًا هامًا في مجمع نيقيا. (المترجم).

ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم. وكان المجلس عاصفًا. ولما قام آريوس (Arius) المسن ليتكلم، لطمه على وجهه شخص هو نيقولا الميري (Nicholas of Myra)، ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج، وقد وضعوا أصابعهم في آذانهم في رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ. وإن المرء ليلذ له أن يتصور الإمبراطور العظيم، وهو في أشد القلق على روح إمبراطوريته، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات، منحنيًا نحو مترجميه يسألهم إيضاح تلك الضجة.

وتمخض هذا المجمع عن "بيان العقيدة النيقية" وهو بيان "ثالوثي" دقيق، وناصر الإمبراطور هذه العقيدة "الثالوثية". ولكن لما حدث فيما بعد أن أثناسيوس اشتط في الحملة على الأريوسيين، أمر به فنفي من الإسكندرية، ولما رغبت كنيسة الإسكندرية في حرمان آريوس، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها.

٨- تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا. إذ هو تاريخ أول مجمع عام "مسكوني Oecumenical" بكامل هيئته للعالم المسيحي بأسره: (فأما ذلك المجمع الذي عقد في آرل وذكرناه آنفًا فكان اجتماعًا للنصف الغربي فقط). وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي بصفة قاطعة إلى مسرح الشئون الإنسانية، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم عامة. وهو يحدد التعريف الدقيق للتعاليم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed).

ومن الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا هذه التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصري. فإن المسيحيين جميعًا يعتقدون أن الأولى تنطوي على الثانية وتحتويها احتواء تامًا، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا. فمن الواضح تماما أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين. وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبسًا عليها ولا هيكل. ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس. وكان قربانها "قلبًا كسيرًا خاشعًا". وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة. بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها – كانت في صلبها "ديانة كهنوتية"، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة، والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان بقربه قسيس متكرس للقداس. ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة.

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها. فإنها لم يكن لديها في أي مكان أية صورة مجسدة شبه قدسية للرب. ولم يكن هناك معبد رئيسي يحوي الرب، وذلك لأن الرب موجود في كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس. وكانت مذابحها المنبثة في كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذي لا يرى. والمسيحية حتى في أقدم مظاهرها كانت تحوي شيئًا جديدًا.

وثمة أمر هام جدًا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية. فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذي دعا لاجتماع مجمع نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon)(٤٥١)، جمعتها كلها يد الإمبراطور. والجلي الذي لا خفاء فيه أن قدرًا كبيرًا من تاريخ المسيحية في ذلك العصر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد. وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستبدًا (أوتوقراطيًا) مطلقًا. ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت في أيام أورليان ودقلديانوس. وكان يحاول بالقدر الذي هيأته له معارفه، أن يعيد – قبل أن يفوت الأوان – تكوين الإمبراطورية المتضعضعة، وكان يعمل من غير مستشار أو ناصح، أو أي رأي عام أو أي شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط. فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام، والقضاء على كل فكر

بواسطة فرض عقيدة "اعتقادية Dogmatic" واحدة على المؤمنين جميعًا، إنما هي فكرة استبدادية أوتوقراطية بأشمل معاني الكلمة، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذي يعمل بغير معين والذي يشعر أنه لكي يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد. ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره، سلسلة من الكفاحات العنيفة التي كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأي. وعنه اقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها.

وجاء بعد ذلك مستبد عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥) فساهم من فوره في فرض طابع استبدادي صريح على المسيحية الكاثوليكية. فحرم على من لم تصح عقيدتهم من المسيحيين عقد الاجتماعات، وسلم كل الكنائس للثالوثيين، وقضى على معابد الوثنية في كل أرجاء الإمبراطورية، وفي ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظيم بالإسكندرية فحطم. إذ لم يكن ليسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتماسكة.

ولسنا بمستطيعين أن نخبرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولا عن عدم هضمها للزنادقة مثل أتباع أريوس وأتباع بولس [١] والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين. ولو أنها كانت أقل استبدادًا وأكثر تسامحًا مع الأفكار المتنوعة، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه. ولكنها على كل هذه الاضطرابات، ظلت زمانًا تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط. ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تتبوأ منزلة أعظم وأقوى وأشد دوامًا مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي. لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض على الناس فرضًا بل هي قطعة من نسيج عقولهم. وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير، حتى شملت أرمينية وفارس والحبشة وأيرلندة وألمانيا وحتى تغلغلت في الهند والتركستان. "وهي وإن تألفت من مجاميع منتثرة انتثارًا متباعدًا، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعبًا واحدًا لله. واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة. فإن تبادل الاتصال بين المجتمعات المسيحية المتنوعة كان قائمًا على قدم وساق. وكان المسيحيون الذين هم على سفر، على يقين دائمًا من استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم في الدين. وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى. وكان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان. وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية، منتشرة انتشارًا واسعًا. وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق منوعة للتعبير عن نفسه. حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة، طرازًا مشتركًا بينهن جميعًا" [٢].

---

(١) أتباع بولس (Paulicians): فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق في القرن السابع عقيدتها خليط من الأغنسطية والمانوية. واشتق اسمهم من القديس بولس الذي كانوا يولونه وكتاباته تبجيلاً عظيمًا. (المترجم).

(٢) الموسوعة البريطانية مادة "تاريخ الكنيسة" ص ٣٣٦.

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروح حتى عام ١٠٥٤، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة، وهي الكنيسة "الأرثوذكسية"، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صوري هو إضافة كلمتين على العقيدة، فإن الملة القديمة كانت أعلنت: "إن روح القدس منبثق من الأب". وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أي ومن الابن أيضًا) بل وأضافتها فعلاً، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الديني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم. على أن مسيحيي شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متذرعين بمثل هذه الذرائع، – إذ كانت هناك كنائس في مرو وهيرات وسمرقند. فهؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية، وقد امتد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين. كذلك فصلت الكنيستان المصرية والحبشية نفسيهما في زمن مبكر جدًا لمثل هذه النقاط التي لا سبيل إلى تفسيرها. ومهما يكن الأمر، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطري الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية بزمن كبير، كان هناك انفصال فعلي جاء في أعقاب انقسام الإمبراطورية. ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية. فعلى حين كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متماسكة البنيان، وعلى حين ظل الإمبراطور في القسطنطينية متسلطًا على الكنيسة، فإن النصف اللاتيني من الإمبراطورية قد انهار كما سبق أن قلنا، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطوري.

وفضلاً عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليروسية) في إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس، فإن السلطة في الغرب تركزت في بطريرك أو بابا روما. وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة، وتآزرت كل هذه الأمور على تبرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق في ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور. حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يتخذونه لأنفسهم، وبذا أصبح كاهن القرابين الأعلى في قديم التقاليد الرومانية، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافًا كاملاً بالسيادة العليا على المسيحيين هناك، فأما في داخل ممتلكات الإمبراطور الشرقي ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين، فقد كان من الضروري منذ البداية توخي منتهى الحذر في حث الناس على تقبل تلك السيادة.

وكان القول بتولي الكنيسة الحكم الدنيوي منتشرًا بالفعل في القرن الرابع الميلادي. فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو [1] بشمال إفريقية، كتب بين ٣٥٤، ٤٣٠ معبرًا عن تطور الفكرات السياسية للكنيسة في كتابه "مدينة الرب". وكتاب "مدينة الرب" ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلى "مملكة سماء" لاهوتية منظمة. والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هي "مجتمع روحي من المؤمنين المقدور لهم الإيمان منذ الأذل"، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسي للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة. إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب جميعًا، والقوة التي ترشدها العناية الربانية وتحكم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية. وتطورت هاته الفكرات فيما أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة. وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية، شرع البابا يدعي أن له السيادة العليا على ملوكهم. ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من الناحية النظرية، وإلى حد معين من الناحية العملية – الكاهن الأعلى والرقيب والقاضي والملك القدسي للعالم المسيحي. وامتد سلطانه غربًا إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة: إلى أيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا. وانقضت ألف عام أو تزيد، وأوربا تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية، وهي التي تتصور العالم المسيحي في صورة ضرب من حلف من الدول، يمتنع أعضاؤه حتى في أيام الحرب عن إتيان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوّة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة. ومن أسف أن تاريخ أوربا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخًا يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة، فكرة قيام حكومة عالمية مقدسة، – عن تحقيق نفسها عمليًا.

[1] في الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجستي النوميدية. ونوميديا إقليم قديم في شمال غرب أفريقيا يطابق بالتقريب الجزائر الحديثة. (المترجم)

٩- خريطة أوربا في ٥٠٠ م

أدلينا إليك في الفصل السابق ببيان عن أهم الغارات التي قامت بها الشعوب المتبربرة. وفي إمكاننا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوربا السياسية عند ختام القرن الخامس. في ذلك الحين، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية الأصلية، أثر بوصفها قسمًا سياسيًا متميزًا منفصلاً. فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطامًا باليًا وحل محلها في عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهلِّينية التي أصبحت هي "الإمبراطورية" في عرفهم. وكان الإمبراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور – من الناحية النظرية على الأقل.

أما في بريطانيا فكان الأنجل (الإنجليز) والسكسون والجوت – وهم أجيال من التيوتون البرابرة البالغي الهمجية قد غزوا نصف إنجلترة الشرقي. وكان البريطون (Britons) لا يزالون صامدين في غربي الجزيرة، بيد أنهم كانوا يرغمون على التقهقر إلى الخلف رويدًا رويدًا نحو ويلز وكورنوال. على أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة الغزاة قساوة وتأثيرًا فعالاً فيمن حولهم، فحيثما سادوا حلت لغتهم محل اللغة الكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداهما – ولسنا ندري على وجه التحقيق أيّهما كانوا يستخدمون. ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد.



(شكل ١٢١) خريطة أوربا حوالي سنة ٥٠٠م

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً. بيد أن وادي الزون كان تابعًا لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين. على حين كانت إسبانيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويفي كانوا يملكون الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة.

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية؛ فأما إيطاليا، وكانت لا تزال رومانية السكان والعادات، فإنها وقعت في قبضة القوط الشرقيين. لم يبق هناك إمبراطور بروما؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك القوط. وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا وينحدر جنوبًا في الأدرياتي إلى دالماتيا وبلاد الصرب.

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة القوط حكمًا ثابتًا مستقرًا. وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحّل راكبة الخيول في منطقة الفولجا. أما الصربيون الآريون فقد انحدروا حديثًا نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية، وصلوا بعد إلى أوروبا. وكان اللومبارد نازلين حتى ذاك الوقت في شمال الدانوب.

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تفيأته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥). فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م. وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥)، فاستقروا في لومبارديا، على أنهم تركوا رافنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية الشرقية.

ذلك هو الوضع السياسي للعالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية Christendom. والحق أن الحياة اليومية لذلك الزمان كانت تتقلب في مستوى خفيض جدًا – لا جرم – من النواحي الجثمانية والذهنية والخلقية. وكثيرًا ما يقال إن أوربا قد انحدرت إلى البربرية في القرن السادس والسابع، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال. والأصح كثيرًا أن يقال إن مدنية الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في دور انحلال خلقي متطرف. والبربرية نظام اجتماعي ذو طراز أولي، ولكنه منظم داخل نطاقه؛ بيد أن أوربا من دون تمزقها السياسي كانت في حالة فوضى اجتماعية. ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين (Kiaal) بجنوب إفريقيا بل معنويات حي فقير بإحدى المدن. ففي القرية المتوحشة، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع، ويعيش ويتصرف وفقًا لهذا، فأما في حي الفقراء، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأي كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطًا إلى ذلك الكائن.

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعني به الإحساس بالمجتمع وإن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة "عالم المسيحية".

لقد أصبح البناء الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية حطامًا وأشلاء. فإن حضارتها حضارة ثراء وسلطان سياسي يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق. أجل إنها تجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجي النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود، فكان لا بد لها من أن تتحطم، وكان لا بد من إزالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خير منها.

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها الذهني. إذ إنها لم تنتج في ثلاثة قرون علمًا ولا أدبًا له أية قيمة. والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالاً يتيح للعالم فلسفة متزنة وعلمًا راقيا وفناً منظمًا، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يُغرونَ على الإغراق في الملذات. وليسوا فقراء مكدودين بحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية. على أن بلوتوقراطية (Plutocracy) روما: (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هذا الشيء أمرًا مستحيلاً. فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لهم حدًا يلتزمونه ولا ضابطًا يكبحهم، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعًا بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشاً عتاة في إمتاع النفس بالملذات؛ فإن أضناهم العسر وأذلهم الشقاء، لجئوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت.

على أنه يخيل إليّ أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقيًا تعسًا في هذه "العصور المظلمة"، التي وصلنا إليها الآن؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيرًا أن نقول إن ذلك الخداع العنيف السوقي الخشن الذي ركبت عليه الإمبريالية الرومانية، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرباب الأملاك والماليين، قد هوى في خضم البؤس الذي كانت أمواجه تتلاطم حولها من قبل. ولا يخفى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء ناقصة إلى أبعد حد، فقلّ أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا، وقلما كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقًا؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأي إنسان سلامة كتاباته أو يؤكد احتمال قراءتها. بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدرًا يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوصية وحروب، بل عصر مجاعة ووباء. إذ لم تظهر في العالم حتى ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعال، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضي على كل إجراء صحي يتخذ. فإن تخريب آتيلا لشمال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار الحمى في ٤٥٢. كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدمّلي قرب نهاية حكم جستنيان (٥٦٥)، كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد. وفي ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون" إن هذا العدد كان يموت كل يوم"). وكانت مراجل الطاعون تغلي وتهدر في روما عام ٥٩٠. وكان القرن السابع كذلك قرناً منكوبًا بالطاعون. ويسجل بيد [1] (Bede) الإنجليزي، وهو أحد الكتاب القليلين في زمانه، أوبئة حدثت في إنجلترة في ٦٦٤، ٦٧٢، ٦٧٨، ٦٨٣، أي ما لا يقل عن أربعة في عشرين سنة! ويقرن جيبون الوباء الجستنياني بالمذنّب العظيم الذي ظهر عام ٥٣١، وبما دهى به

---

(١) بيد (ح ٦٧٣ – ٧٣٥) لاهوتي ومؤرخ إنجليزي، سمي بيد الوقور. كتب أعمالاً علمية ولاهوتية وتاريخية كثيرة. (المترجم).

العالم أثناء حكم ذلك العاهل من الزلازل المتتابعة الخطيرة. فيقول "غودرت كثير من مدن الشرق خاوية على عروشها، وذبل المحصول والعنب على الأرض في كثير من أصقاع إيطاليا". وهو يـ دعي حـ دوث "نقـ ص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار الدنيا". وقد بدا للكثيرين في تلـ ك الأيـ ام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال.

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أي حد كانت العامة أتعس حالاً في ظلال هذه القذارة وعدم الاطمئنـ ان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاحن. أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان آخر، فهنـ ا حكـ م أشـ رار عنيفين وهناك حرية معتدلة، وقد تلقى مجاعة في هذه السنة ووفرة خيرات فـ ي التـ ي تليهـ ا. فلـ ئن كثـ ر اللصوص، فإن جامعي الضرائب والدائنين قد اختفوا. وإن ملوكًا من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونـ وا في الواقع إلا أطيافًا وحكامًا لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم. كانت حياة كل ناحية ترزح فـ ي مستوى خفيض، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار. وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشـ خاص علـ ى مساحات كبرت أو صغرت من الريف؛ مدعيًا على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصانا، لقب لـ ورد أو كونت أو دوق مستقي من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك. ويقوم هؤلاء النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم. وكثيرًا ما كانوا يتخذون لأنفسهم مباني قديمة يكيفونهـ ا وفـ ق حاجتهم. مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذي طالما شهد حفلات المجالـ دين، حول إلى قلعة، وكذلك حول المسرح المدرج في آرل. وكذلك أيضًا حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما.

وكان يحدث في المدن والبلدان المتهدمة التي صارت عند ذاك غير صحية، أن هيئات صغيرة من مهـ رة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها، مع وضع أنفسهم في حمايـ ة بعض النبلاء المجاورين.

١٠- خلاص العلوم على يد المسيحية

حملت هيئات الرهبنة: (الديرية) المسيحية التي أخذت تنشأ في العالم الغربي إبان القرنين السادس والسابع، نصيبًا بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجتماعي الذي حدث في هذين القرنين بعد ما جرى في الراب ع والخامس من التحطم والانصهار.

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية. وفي الفترة التي ألم فيها الشقاء الاجتماعي ب اليهود قبل زمان يسوع الناصري، كانت طائفة من النساك الإستينيين [١] تعيش منعزلة في مجتمعات وق د وهب ت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات. كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة في العالم، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل. والواقع أن قصة بوذا، كما سردناها لك، أبانت أن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منتشرة في الهند قبل أيامه بزمن بعيد، وأنه عاد فنبذها وراء ظهره آخر الأمر. ونشأت في زمن مبكر جدًا من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه، تتنكب ما يغمر حي اة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد. وفي مصر على وجه الخصوص، خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات، وظلوا يعيشون في فق ر مدقع في الكهوف أو نحت الصخور على الصداقات التي تقذفها إليهم الصدفة م ن أولئ ك ال ذين يت أثرون بقداستهم. وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى الم ؤرخ – فإنه ا لعم ري أنف س منسحبة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها – لولا ذلك الاتجاه ال ذي اتخذت ه للف ور تل ك النزع ة الديري ة (Monasticism) بين الأوربيين الأكثر نشاطًا والأميل إلى الناحية العملية.

ويعد القديس بندكت الذي عاش بين سنتي ٤٨٠، ٥٤٤ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديري ة ف ي أوربا. ولد في مدينة اسبوليتو (Spoleto) بإيطاليا، وكان شابًا كريم الأصل جم الكفاية. وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها، فمال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا، وأطلق لتقشفاته العنان في مبدأ الأمر. فهناك عل ى مبعدة خمسين ميلاً من روما تقع سوبياكو (Subiaco)، وعند نهاية خانق في نهر الأنيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون، يطل عل ى بحي رة صد ناعية صنعت في أيام الرخاء المنصرم ذاك بحجز مياه النهر. وهناك اتخذ بندكت – وكان أهم ما في حوزته قميص من الشعر – مقامه بكهف في صخرة عالية متجهة جنوبًا تطل على النهر، وهي في مركز يصعب الوص ول إليه، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدلي إليه طعامه بحبل وهناك أقام ثلاث سنوات ذاعت فيها شهرته: مثلما ذاعت شهرة بوذا في ظروف مشابهة قبل ذلك بألف سنة.

---

[١] الإسينيون: جماعة إخاء دينية بين اليهود الأقدمين كانت تعيش عيشة شظف انعزالية والملكية بينها شيوع. (المترجم).

وكما حدث في حالة بوذا، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطي العقول، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات. على أننا لا نلبث حتى نجده وقد انصرف ع ن تع ذيب النفس، وأخذ يدير مجموعة من اثني عشر ديرًا، كانت ملاذ عدد كبير من الناس. ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم، وبذا تغير وجه حياته كلية.

وانتقل من سوبياكو جنوبًا إلى مونتي كاسينو، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلي، مـ وحش جميل، يقوم في وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة. ومن الشائق أن نلحظ أن القديس وجد هنا في القرن السادس الميلادي، معبدًا لأبولو وأجمة [1] مقدسة، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة لا تزال تتعبـ د فـ ي ذلك المعبد. لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله، بالتبشير لدين المسيح، فاستطاع في شيء من العسـ ر أن يقنـ ع الوثنيين البسطاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطعوا أجمتهم. وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونتي كاسـ ينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها. وإنا لنستطيع أن نعرف شـ يئًا مـ ن روح بنـ دكت الحقيقيـ ة وإن اختلطت بمخترعات وترهات سخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب: من أبالسـ ة تتصـ اع للرقـ ي، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة. غير أن الأقاصيص التي تمثـ ه ينهـ ي عـ ى التطرف في قمع النفس وإذلالها، إنما هي أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة. فإنه أرسـ ل رسـ الة لراهـ ب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع بربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق يثبط فيها من حماسـ ته ويدعوه فيها أن يخفف من غلوائه. قال بندكت: "كسّر أغلالك، لأن خادم الله الحقيقي، لا يغل إلى الصـ خور بالحديد، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر".

والميزة الثانية التي يمتاز بها بندكت بعد مقاومته لتعذيب النفس والعزلة، إصراره على ضرورة الجد فـ ي العمل، وتسطع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذي أحدثه تلاميذه ومريدوه النـ بلاء؛ الـ ذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الكدح الشديد بدلاً من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين عـ ى خدمـ ة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا. والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو نفوذه السياسي. فإنـ ه نصـ ب نفسـ ه لإصلاح ذات بين القوط والطليان، ومن المعروف أن توتيلا (Totila)، ملك إيطاليا القوطي، حضـ ر إليـ ه يطلب مشورته، وأنه تأثر به تأثرًا عظيمًا. ولما ارتجع توتيلا نابلي من الإغريق، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية. وذلك بينما حدث عندما استولى بليسـ اريوس قائـ د جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات، أنه احتفل بنصره بإقامة مذبحة عامة.

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت، كانت بداية عظيمة جدًا في العالم الغربي، ومن بـ ين أتباعـ ه المبرزين البابا جريجوري الكبير (٥٤٠ – ٦٠٤)، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠)؛ وهو من أشد الباباوات اقتدارًا وهمة ونشاطًا؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الـ دين المسـ يحي وعلى الأخص إلى الأنجلوسكسون. وحكم في روما كأنه ملك مستقل، ينظم الجيوش ويعقد المعاهـ دات. وإلـ ى نفوذه يرجع الفضل في فرض قواعد المذهب البندكتي وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريبًا.

---

[1] الأجمة: الشجر الكثير الملتف. (المترجم)

ويرتبط كاسيو دورس (٤٩٠ – ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لدى النساك الأوائل، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة. وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري، ويصغر بندكت بعشر سنوات، وكان شأن هذين – ينتمي إلى أسرة نبيلة من البطارقة، أسرة سورية استقرت في إيطاليا. قضى مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط؛ ولما حدث بين سنتي ٥٤٥، ٥٥٣، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم، الطريق لحكم اللومبارد البربري الجديد، راح يلتمس الملاذ في حياة الرهبانية، فأنشأ ديرًا على أرض مزارعه الخاصة، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتي تمامًا، وإن كنا لا ندري هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتي كاسينو. ولكن لا يتطرق الشك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والدراسة. ومن الجلي أنه قد راعه ما ران على التعليم من انحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العالم. لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها. فجمع المخطوطات القديمة وأمر بها فنسخت. وقام بصنع المزاول والساعات المائية وما شابهها من أجهزة: وهو قبس ضئيل أخير للعلم التجريبي خفق هنيهة في تلك الظلمات المتكاثفة. وألف كتابًا في تاريخ ملوك القوط؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره بحاجة زمانه، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة [1] وكتابًا في الأجرومية أعني قواعد اللغة. والراجح أن سلطانه، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه.

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتي في القرنين السابع والثامن عظيمًا جدًا، فإنا نجدها في كل مكان مركزًا للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه، ويقيم ضربًا من التعليم الأولي، وينشر فنوناً مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويختزنها ويصونها، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالاً لعمود فقري اجتماعي. ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع وخيوط للاستتارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضى برمته. ومما يرتبط بأديرة البندكتيين ارتباطاً وثيقًا، تلك المدارس التي نمت للفور فأصبحت جامعات القرون الوسطى. وكانت مدارس العالم الروماني قد زالت زوالا تامًا في طوفان الانهيار الاجتماعي العام. ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدًا من القسيسيين في بريطانيا وبلاد الغال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات. فكأن التعليم لم يرجع إلى نصابه في العالم إلا تدريجيًا. بيد أنه عندما رد إلى نصابه، لم يعد بوصفه عملاً إجباريًا يلزم بأدائه عبد عالم، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال الذين حبسوا أنفسهم عليه.

---

[1] الفنون الحرة (Liberal Arts): هي فروع معينة من الفكر والعلوم الإنسانية تعد وسائل لا بد منها للتنمية الفكرية مثل النحو والمنطق والرياضيات. (المترجم)

وحدث في شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حبل التعليم، بيد أن السبب هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعي قدر ما كان عدم التسامح الديني، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تامًا كما حدث في الغرب. فأقفل جستنيان ما بأثينا من مدارس منكمشة ومنحلة ذهنيًا وشرد رجالها (٥٢٩). بيد أنه فعل ذلك في معظم الأمر لكي يقضي على كل منافس للمدرسة الجديدة التي كان يقيمها في القسطنطينية والتي كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى.

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها، فإنها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوي لنقيض ذلك، أن تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الأدب اللاتيني (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات اللاتينية للأدب الإغريقي. وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب الفاخر يعظم كثيرًا ما كانت تود أن تحتفظ به.

١١ - الفن البيزنطي

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أي إلى بيزنطة، يظهر في العالم طراز جديد من الفن المعماري، وروح فنية جديدة، هو الطراز البيزنطي. وبلغ ذلك الفن درجة عالية من التطور إبان حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) وسنحدثك عنه في الفصل التالي. ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد في القرن الحادي عشر. وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثاً فنيًا حيًا في شرق أوربا. وهو يعبر عما جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع. وقد أفرغت فيه على التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية. وتحل فيه الفخامة محل الصراحة والرشاقة.

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواؤها على قدر معين من الصلابة. وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريقي والروماني من مرونة، وظهر في مكانها فسيفساء [1] (Mosaics) تحمل أشكالاً مسطحة سيمترية التصوير منتصبة في مواجهة تامة. ولا تكاد تجد البتة رسما جانبيًا (Profile) ولا أي أثر للتقصير [2]. وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعي الذي كان يقدسه الإغريق، موضع الملاءمة وشيئاً يخشى شره. ومن ثم بلغ ذلك الفن وقارًا عظيمًا رصيناً. فتبدو صور الرب الخالق والعذراء والطفل والقديسين العظام، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء، ممعنة في التفكير، وهي تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة التي هي موضوعة فيها. وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة في التصوير وتحلية الكتب بالصور، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى، واستبدلت الأشكال المجسدة (أي التماثيل) بنوافذ شبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة. وكانت أشغال الذهب والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل. وغالبًا ما كانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها. ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثّل الأجسام قضاء أتم وأكمل.

وكذلك أصبحت الموسيقى ضخمة ولها شأنها. وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التبتل والحماسة منها إلى الإتقان والصقل، وهي تنهل من منابع "سامية" أكثر منها "هلّينية". فأما الموسيقى الدنيوية فمحظورة حظرًا تامًا. فقد قال القديس جيروم: "إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللير أو الناي". فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية، وقصر قصرًا يتراوح زيادة ونقصاناً على الجوقات (الكورس) المنظمة. وكان الترتيل التجاوبي (Antiphonal) شائعًا. وكان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطبيعة الحال في نغمة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائي (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد. وكان إنشاد التراتيل متنفسًا عظيمًا ينفس عن العواطف المكبوتة. فظهر قدر وفير من التراتيل في اللغتين اليونانية واللاتينية. ويقال إن بعضها لا يزال باقيًا في تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا. وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبير)، ذلك المنظم العظيم للكنيسة، الذي لدينا عنه مزيد من القول تحدثك به في فصل تال، أسس موسيقى القداس الكنسي في القرن السادس.

---

(1) وهو ما يسمى بفصوص الذهب أو السليزلي. (المترجم).

(2) التقصير (Foreshortening): تمثيل المنظور بحيث تقصر في الظاهر الخطوط الساقطة. (المترجم).

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء

انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١- جستنيان الكبير.

٢- الإمبراطورية الساسانية في فارس.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين.

٤- أول رسالة من الإسلام.

٥- زرادشت وماني.

٦- الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند.

٧- أسرتا "هان وتانج" بالصين.

٨- أغلال الصين الذهنية.

٩- الفن الصيني القديم.

١٠-رحلات يوان تشوانج.

١ – جستنيان الكبير[١]

ركزنا التفاتنا في الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث في فترة قصيرة نسبيًا قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية العظيمة: إمبراطورية قيصر وتراجان، ولم يفتنا أن ننعم النظر في ذلك الانهيار والإفاضة في بلوغه الذروة. ولا مراء أن أي فرد ذكي الفؤاد عمومي الروح [٢]، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودورس وفي نفس ظروف حياتهما، كان يخيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها يخبو وآذنت شمسها بالمغيب. على أن النظرة الأرحب التي تتيحها لنا دراسة التاريخ العام، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورًا – ولعله كان دورًا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجتماعية والسياسية في انطلاقها إلى الأمام. ولئن حدث أثناء ذلك الزمان، أن إحساسًا قاتما بنكبة فادحة يجثم على صدر أوربا الغربية، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أي تقهقر ولا انحطاط.

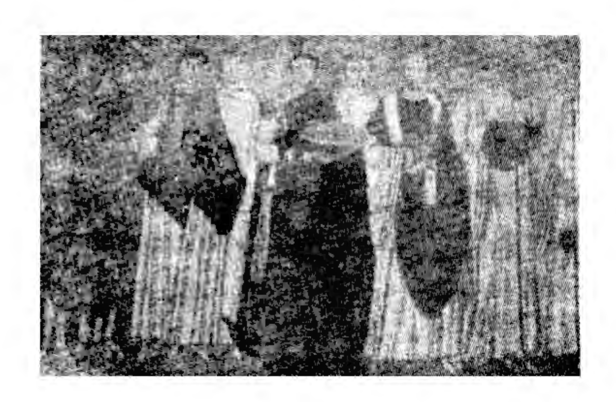
ويجنح الكتاب الأوربيون، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكارهم، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمبراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية. وغني عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما. فلو أن القارئ نظر إلى الخريطة التي تبين مدى اتساعها في القرن السادس، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية، لأدرك أن ما نعالجه هنا، إنما هو فرع من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط. إذ الواقع أنها هي الإمبراطورية الهلّينية التي طالما حلم بها "هيرودوت"، والتي أسسها الإسكندر الأكبر. حقًا إنها كانت تدعو نفسها "الرومانية" وتدعو سكانها "رومانا" [٣]، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic). وحقًا أن قسطنطين الكبير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة جستنيان في نطقها كانت رديئة. على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع، وهو أن الإمبراطورية كانت في حقيقتها هلّينية، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من ستة قرون، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تقلصًا كاملاً في مدى أربعة قرون، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلّينية قد صمدت أكثر من أحد عشر قرنًا من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٢، عندما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين.

---

[١] من شاء استزادة في تاريخ ذلك الإمبراطور فعليه أن يقرأ للمترجم كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف استيفن وانسيمان (مجموعة الألف كتاب، ومكتبة النهضة المصرية). (المترجم).

[٢] عمومي الروح Public spirited هو من يخدم الغير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيري الروح كما أسلفنا في هامش سابق. (المترجم).

[٣] ويسميها العرب بدولة الروم. (المترجم)



(شكل ١٢٢) صورة بالفسيفساء لجستنيان وبلاطه

وعلى حين اضطررنا أن نحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعي الكامل في الغرب، فلم يحدث في الشرق انهيار مماثل لذاك. فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفيـ ـة وتواصـ ـل رواج التجارة. وظلت القسطنطينية قرونًا عديدة أعظم وأغنى مدينة في العالم. ولن نشغل أنفسنا هـ ـا هنـ ـا بأسـ ـماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم. فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمـ ـة، لـ ـم يكونـ ـوا ليوجهوا إمبراطوريتهم، بل هي التي كانت تدفعهم دفعًا. ولقد سبق أن عالجنا في شيء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ – ٣٣٧). وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥)، الذي وحـ ـد الإمبراطوريـ ـة لفترة يسيرة، وذكرنا جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥). وسنذكر لك من فورنا شيئًا عن هرقل (٦١٠ – ٦٤١).

ولعل جستنيان كان كقسطنطين يحمل في عروقه دمًا سلافيًا. كان رجلاً واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها، وهي الإمبراطورة ثيـ ـودورا، التي كانت في صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة. على أن محاولاته الطموح لاسترداد عظمـ ـة الإمبراطوريـ ـة القديمة، أثقلت فيما يرجح مواردها بالضرائب [1]. ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقيـ ـة مـ ـن الونـ ـدال واستعاد معظم إيطاليا من القوط. كذلك استرد جنوب إسبانيا. وبنى الكنيسة العظيمة الجميلـ ـة كنيسـ ـة القديسـ ـة صوفيا بالقسطنطينية، وأسس جامعة وجمّع القوانين. بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينـ ـا. ولكن اجتاح العالم في زمانه طاعون عظيم، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجـ ـددة كمـ ـا تنهـ ـار مثانة نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس. فذهب القسم الأكبر من فتوحه الإيطالية إلى أيدي اللومبارد، ونذكر هنـ ـا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى صحراء أو ما يشبه الصحراء. ذلك أن مؤرخي اللومبـ ـارديين يؤكـ ـدون أنهم نزلوا في قطر خال من الناس. وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيثون فسادًا من أرض الـ ـدانوب إلـ ـى الأدرياتي، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيما هو الآن صربيا وكرواتيا ودالماتيا، فأصبحوا يوغسلاف هـ ـذا الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن نزاعًا عظيمًا مضنيًا نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس.

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئًا عن هذا الكفاح، الذي أوشك فيه الفـ ـرس ثـ ـلاث مـ ـرات أن ينتزعـ ـوا

---

[1] عن المزيد من تاريخ هذه الحقبة، انظر كتاب "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب). (المترجم).

القسطنطينية، والذي كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب تينوي (٦٢٧)، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس من أيام البارثيين.

٢– الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التي عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية العنيدة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات. وألقينا نظرة عجلى على الملكيتين البلخية الباكترية [1] والسلوقية المهلنستين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون في النصف الشرقي مما غزاه الإسكندر من بلاد. وأخبرناك كيف هبط البارثيون أرض الجزيرة في القرن الأخير ق. م. ووصفنا لك معركة كاراي (Carrhae) ونهاية كراسوس. ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين البارثية تحكم في الشرق بينما حكمت الدولة الرومانية في الغرب، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا، وكانت الحدود تنتقل شرقًا أو غربًا تبعًا لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر. ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمبراطورية الرومانية شرقًا في عهد تراجان (انظر الخريطة (١١٤) المرافقة للفصل ٢٧ القسم الأول ص ٦١١ ج ٢)، كذلك لاحظنا أن "الهندوإسكيذيين Indo-Scythians " تدفقوا قرابة ذلك الزمان إلى الهند (الفصل ٢٧ – القسم الخامس).

وشبت ثورة في ٢٢٦، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هي الساسانية، وهي أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول. وكانت إمبراطورية أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من جهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير بعد ذلك بمائة سنة. ذلك بأن أردشير حاول أن يقوي أواصر تماسكها بأن اهتم بالوحدة الدينية وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد؛ وسنذكر المزيد عنها فيما بعد.

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أرشدير وخلفه. وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخذ أسيرًا. على أنه بينا كان شابور عائدًا من حرب مظفرة في آسيا الصغرى، إذ انقض عليه أذينة وهزمه، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجاري عظيم في الصحراء هو تدمر (Palmyra).

وقد ظلت تدمر زمانًا قصيرًا في عهد أذينة، ثم في أيام أرملته الزبّاء (Zenobia)، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإمبراطوريتين. ثم سقطت في يد الإمبراطور أوريليان الذي حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آية فخار لنصره (٢٧٢).

ولسنا بمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية. ففي طوال ذلك الزمان أنهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إنهاك الحمى. وانتشرت المسيحية انتشارًا واسعًا ولكنها كانت موضع الاضطهاد، إذ إنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعي الربوبية غير العاهل الفارسي، فرأى في المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البيزنطي. وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحيين، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية. وفي ٤٨٣ انفصل

[1] بلخ (بقتر): وهي ما تسمى الآن باكتريا: كانت ملتقى الحضارة الهندية وغيرها. (المترجم)

نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية، التي نشرت – كما سبق أن ذكرنا – مبشريها في كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية. ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا قد حرر الأساقفة النصارى في الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين، وبذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسي من شبهات، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية في بلاد فارس.

وابتدأ بحكم كسرى الأول (٥٣١ – ٥٧٩) الملقب أنوشروان آخر عهود القوة الساسانية. كان معاصرًا لجستنيان وعديلا مكافئًا له. فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشتية السلفية الحقة، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن)، التي أنقذها من حكم نصارى الحبشة، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربية، وخاص سلسلة من الحروب مع جستنيان. وبلغت شهرته بوصفه حاكمًا مستنيرًا درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق جستنيان مدارس أثينا. إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف – ذلك السراب الذي أمعن كنفوشيوس وأفلاطون في البحث عنه في زمانيهما كما سبق أن ألمحنا. ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشتية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية. وفي ٥٤٩ ترفق كسرى بهم بأن أدخل في هدنة عقدها مع جستنيان فقرة تبيح لهم العودة إلى بلاد الروم، وتستوثق أنهم لن يضارّهم أحد بسبب فلسفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذي تجلى فيه ميلهم حيناً ما إلى فارس.

وإنا لنسمع في أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هوني جديد في آسيا الوسطى، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم في محالفة معه أولاً ثم مع القسطنطينية.

وتقلبت الحظوظ ألواناً على كسرى الثاني أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨) حفيد كسرى الأول. فإنه في بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية. وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (في ٦٠٨، ٦١٥، ٦٢٦) وهي المدينة المواجهة للقسطنطينية، واستولى على أنطاكية ودمشق والقدس (٦١٤). وحمل من القدس صليبًا، قيل إنه الصليب الحقيقي الذي صلب عليه يسوع، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون). (ولكن جزءًا من هذا الصليب الحقيقي أو صليبا ما آخر حقيقيًا انتقل قبل ذلك إلى روما. إذ أحضرته من القدس فيما يقال "الإمبراطورة هيلينا"، وهي أم قسطنطين التي جعلت مثلاً أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات، وهي قصة أظهر نحوها جيبون الشيء القليل من الاحترام [1]). وفي ٦١٩ فتح كسرى الثاني مصر ذلك القطر الهين اللين. وأخيرًا أوقف الإمبراطور هرقل (٦١٠)، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدّها، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المحطمة. وظل ردحًا من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته. ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٦٢٣. فلقي الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوي (٦٢٧)، ولكن أحدًا من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية. فقلما أشرف الكفاح على نهايته، كان هناك جيش فارسي على ضفاف البسفور لم يهزم، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة في أرض الجزيرة.

وفي ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثاني أباه وقتله. وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكتي القوى بعد ذلك بعام أو ما يقاربه، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة؛ وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقل، فأرجعه إلى أورشليم محاطاً بجو من الفخامة والحفاوة.

([1]) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها The Decline & Fall of the Roman Empire الفصل الثالث والعشرون.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة، نقدم إليك إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء. بيد أن الشيء الذي يهمنا ويلذ لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالت على حياة السكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان. ولا يجد كاتب هذه السطور شيئًا مقطوعًا بصحته إلا النزر اليسير في حديث تلك الأوبئة العظيمة التي نعلم أنها اجتاحت العالم في القرنين الثاني والسادس من هذه الحقبة. ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان، والراجح أنها أفسدت النظام الاجتماعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمبراطوريتين الرومانية والصينية.

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) في كتابه "آخر ميراث الخلفاء" The caliph's last Heritage، استعراضًا مشرقًا للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصددها. قال متحدثًا عن القرون الأولى التي افتتحت بها الحقبة الحالية، "أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منعزلاً في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالاً تامًا؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهاء والسكيرين والمعتوهين والطغاة والمجانين والمتوحشين والنساء الخليعات، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوي عددًا هائلاً من السكان، وبها قنوات وسدود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة، بالرغم من زحف الجيوش المعادية اللانهائي ذهابًا وجيئة وبالرغم من التغيير المستمر في جنسية الحاكم. وكانت مصلحة كل فلاح ممركزة في المدينة التي يتبعها؛ كما أن اهتمام كل مواطن كان موجهًا إلى تقدم مدينته ورغدها؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمرًا ينظر إليه في بعض الأحايين بعين الرضا والارتياح، إذا كان نصره مضمونًا وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققًا.

"ولا بد أن غارات أهل الشمال [١] كانت من الناحية الأخرى مثار الذعر والهلع، إذ كان لابد للقرويين حينذاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا الدخان الذي يدل على ما ينزله الرحّل بممتلكاتهم من تدمير وإتلاف. وما دامت القنوات لم تمسسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت في متانة وحيطة تضمنان سلامتها)، لم يكن هناك ضرر يستعصي على الإصلاح.

على أن حالة الحياة في أرمينية وبلاد بنطُس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة، إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين، تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم، على حين كان المزارع المسالم في الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية... وكانت كيليكيا وكابادوكيا خاضعتين تمام الخضوع لسلطان الروم، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقية الحضارة، فضلاً عن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة. وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل، ألفينا سواحل البحر المتوسط

---

(١) أي الطورانيين من التركستان أو الآثار من القوقاز. (المؤلف)

مزدحمًا بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية، وهي المخلطة تمامًا فكرًا ولغة، مع تجلي روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الخُلق اليوناني. وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور، وتمضي بحذاء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجيًا.



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسنيين

"وتجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستارًا متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية؛ تبدأ في الشمال بدولتي كوماجين والرها (Edessa) [1] شبه الهمجيتين. وإلى الجنوب من هاتين كانت بامبيكي (مبوج) (Bambyce) بمعابدها الفخمة وحكامها الكهنة. وإلى ناحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة: أنطاكية وأباميا وحمص (Emesa)؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالميرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض التبادل التجاري المحايدة بين بارثيا وروما. وإنا لنجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بعلبك (هليوبوليس) وهي في أوج مجدها، ولا تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا... فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جرَش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية [2] هائلة. ولا تزال سوريا غنية بخرائب ذلك العصر وبقاياه إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية. ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوقي. فإن جزالة الحليات والإسراف في النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعًا على أن أذواق الساميين الشهويين ذوي الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن. ولقد وقفت يومًا في

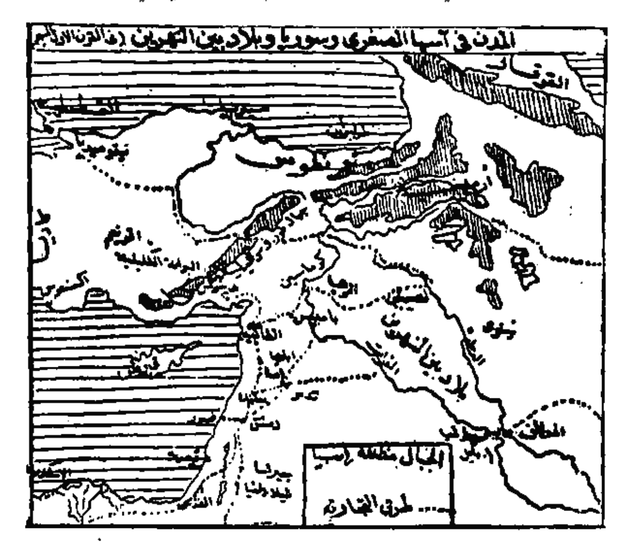
---

(١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا. (المترجم)

(٢) السقايات المائية (Aqueducts) هي قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهي شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الخليج بالقاهرة. (المترجم)

أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يومًا آخر في فندق سيسل، ولولا أن الثاني مبني من الحديد الملطخ بالخشب والجص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك. أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفي لإقامة مبان حقيقية، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركًا يماثل ما تخرجه الآلات. فأما في غير المدن، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تداني ما يفعلونه الآن حيث يبنون جدرانها من الطين والحجر العاري. على حين أنه في المراعي البعيدة في الخارج، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريتهم تحت حكم ملوك النبط [1] (Nabatean) من بني جلدتهم، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة.

"ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفاوات اللافحة، وتقوم بدور التخوم والحصون المنيعة التي تدفع الشر عن الإمبراطورية البائية خلف نهر الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشفون (المدائن) وسلوقيا وهاترا ونصيبين وحوران ومئات أخرى من المدن، نسي الناس منها حتى مجرد أسمائها. كانت هذه المدن العظيمة تعيش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هائلة من الحبوب. وكانت تروى آنذاك بالقنوات التي توارث أسماء منشئيها – حتى في تلك الأيام – في غيابات الماضي السحيق. وكانت بابل ونينوي قد درستا من الوجود. على حين أخلى خلفاء فارس ومقدونيا مكانهم لبارثيا. بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شيء عما كان عليه الحال عندما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة. وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المتقفون فلسفات أثينا ومآسيها (تراجيدياتها). على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور فيما يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحي مقاطعة إسكس اليوم عما يجري في العاصمة البريطانية".



(شكل ١٢٤) خريطة المدن في آسيا الصغري وسوريا وبلاد بين النهرين

(في القرن الأول المسيحي)

---

(1) النبط، شعب عربي كان يسكن القسم الشمالي من بلاد العرب في موقع الدولة الأردنية الآن. (المترجم)

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع.

"وكانت سوريا عند ذاك أرضًا فقيرة منكوبة. ولا بد أن مدنها العظيمة، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان، قد تكاثرت فيها الخرائب التي لم تكن الموارد المالية العامة كافية لإزالتها. ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحضارات الطويلة الفظيعة. وانحطت عمان وجرش إلى مصاف القرى التعسة تحت سلطة البدو وسيادتهم. ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من دلائل الرخاء الذي اشتهرت به أيـ ـام تراجان. بيد أن مباني ذلك الزمان التعسة وكتاباته الخشنة التي تعوزها البراعة تشير جميعًا إلى اضـ محلال محزن مؤلم، وهناك في وسط رمال الصحراء، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم فـ ـي قلعتها. فأما عن الشواطئ وفي لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مشاهدًا، فأما في الشمال فلا بد أن الخرابّ والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التي تعم أراضيها التي ظلت يغيـ ـر عليهـ ـا المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مائة سنة، كما تملكها عدو لها مدة خمسة عشر عامًا. ولا بد أن قد انحطـ ـت الزراعة وقلّ السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصبهما العذاب عليها ألوانًا.

"وهوت كابادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة. وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليت) والمدن الكبيرة التي لم يستطع الريفيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهـ ـدها. وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولاً وعرضًا وتهلك الحرث والنسـ ـل، علـ ـى حـ ـين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب".

٤- أول رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولاً بإعادة النظام في سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفاة كسرى الثاني أبرويز وقبل عقد الصلح النهائي مع فارس، أن أحضرت إليه رسالة غريبة. وكان حاملها قد دفعها إلى مخفر إمبراطوري أمامي في البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق. وكانت الرسالة بالعربية، وهي اللغة السامية غير المعروفة، لغة الشعوب "المترحلة في الصحراء الجنوبية. ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل لها – أضاف إليه الترجمان فيما نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتقار والاستهزاء.

كانت تحديًا غريبًا بليغًا من شخص يدعو نفسه باسم "محمد نبي الله". وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته. ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أي شيء آخر محدد.

وليس هناك سجل أثبت فيه تسلم هذه الرسالة، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد والراجح أن الإمبراطور هز كتفيه، في شيء من التفكه [1] بهذه الحادثة.

بيد أن من في المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدرًا أكبر. إذ قالوا عنه – إفكًا وبهتانًا – إنه نبي مقلق كذاب [كذا!!؟..]، حرض اليمن، وهي الولاية الغنية في جنوب بلاد العرب، على الثورة على "ملك الملوك" الفارسي. وكان الملك قباذ مثقل العاتق بالأعمال. فقد خلع أباه كسرى الثاني أبرويز وقتله، وأخذ يحاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية. وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك المرسلة إلى هرقل. فأغضبه ذلك الأمر. فمزق الرسالة وألقى بها في وجه حاملها – وأمره بالانصراف.

ولما أن نبئ النبي (ﷺ) بذلك، وهو في بلدته النائية الصغيرة المتواضعة "المدينة"، غضب غضبًا شديدًا وصاح قائلاً: "اللهم مزق ملكه شر ممزق" (٦٢٨ م).

---

(1) ذكر ابن هشام في سيرته أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي ومعه كتاب إلى هرقل. وأضاف ابن سعد في الطبقات الكبرى قال: وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، دفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيًا من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس)، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص. فقال: "يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟" قالت الروم : "وما ذاك أيها الملك؟" قال "تتبعون هذا النبي العربي" قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكنهم ثم قال: "إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له". جزء ٢ ص ٢٣ – ٢٤ (المترجم).

٥- زرادشت وماني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع. ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الديني في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني.

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فما بعدها على آلهة نينوي وبابل الأقدمين. وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوستر Zarathustra [1] الإيرانية) آريا مثل بوذا. ولسنا ندري شيئًا عن العصر الذي عاش فيه، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق. م، ويجعله آخرون معاصرًا لبوذا أو كنفوشيوس. ولا يزيد على علمنا هذا، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة. فأما تعاليمه فمحفوظة لنا في الزند أفيستا (Zend Avesta). ولكن نظرًا لأنها لم تعد تلعب دورًا كبيرًا في شئون العالم، فليس في طوقنا أن نعالجها هنا في أي تفصيل. وصفوة القول إن التعارض بين رب للخير وهو أهورا مزدا (هرمزد): إله النور والصدق والصراحة والشمس، وبين رب شرير هو أهريمان: رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل، هو محور ديانته. ونجدها في التاريخ محوطة آنفًا بنظام طقوسي وكهنوتي، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل، تتقد عليها نار مقدسة وتقام عليها الطقوس القربانية. ومن بين خصائصها المميزة، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم. والفرسيس (Parsees) الهنود، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين إلى يومنا هذا، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة، هي "أبراج الصمت والخشوع" التي تنتابها العقبان.

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير فمن بعده (٢٢٧ م)، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك، وطبقًا لأدق مقتضيات العرف القديم، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسي أو شبه قدسي وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد.

بيد أن ما كان يجري في العالم من اختمار ديني لم يترك للزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقًا، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك، بل نشأت طوائف جديدة في فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة. ولقد سبق أن ذكرنا فرعًا أو نوعًا مبكرًا من الزرادشتية هو المثرائية. وهي عقيدة انتشرت في أوربا في القرن الأول ق. م بعد حملات بومبي الكبير في الشرق. فمال إليها الجنود والعامة ميلا هائلاً، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصرانية. ومثرا هو إله النور "الذي يصدر" عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلادًا إعجازيًا بنفس الطريقة التي يصدر بها الأقنوم الثالث في الثالوث المسيحي عن الأول. ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الزرادشتي. على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانوية، وهي تستحق الآن بعض الالتفات.

---

[1] زرادشت بالعربية. (المترجم).

ولد ماني مؤسس المانوية في عائلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م). وتلقى تعليمه في طيشفون. وكان أبوه ناسكا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينية، فتربى في جو من البحث والدراسات الدينية. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل، الذي هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية. ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه. إذ إنه شرع يبشر بتعاليمه عند تولي شابور الأول ثاني ملوك بني ساسان في ٢٤٢ م.

ومما يتسق وخصائص تفكير الناس في تلك الأيام، أن تحتوي تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الثيوكرازيا). فأعلن أنه لا يأتي بأي شيء جديد. ذلك بأن كبار مؤسسي الأديان من قبله كانوا جميعًا على صواب: فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح – كانوا جميعًا أنبياء صادقين، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها. وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه. وهو يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة. وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان. ولكن كيف خلق الإنسان؟ وكيف سقط من النور إلى الظلمة؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقذ من الظلام؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الخليط العجيب من الديانات؟ هذه أمور ما نحن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا. فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخي بحت وما هو باللاهوتي.

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن ماني لم يكتف بالطواف في إيران مبشرًا بأفكاره الجديدة هذه التي بدت له مقنعة تمام الإقناع، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين. ولا شك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة. وهي شائقة تثير الاهتمام كذلك، لأنها تعرض على أنظارنا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين، بل إقليمًا تزدهر فيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث في المسائل اللاهوتية.

وقد انتشرت فكرات ماني شرقًا وغربًا في سرعة عظيمة، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمد العالم المسيحي بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة.

وعاد ماني إلى طيشفون في زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون. فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمي وبرجال الدين. وفي ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب، وأمر بحبسه لسبب مجهول فسلخ. ومن ثم أخذوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد. ومع ذلك فإن المانوية صمدت في فارس بضعة قرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية السلفية أعني "المزدكية Mazdaism".

٦- الشعوب الهونية
في آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلي لنا إلى حد ما أنه في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، لم تكن فارس وحدها، بل الأقاليم التي تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان، - على درجة من المدنية تتجاوز كثيرًا" في تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز في ذلك الزمان، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم في عشرين السنة الأخيرة، واكتشف "أدب" [١] ضخم جدًا، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وحسب، بل تجاوزها إلى اللغة الصغدية [٢] (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى. وترجع هذه المخطوطات الباقية إلى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون. والأبجدية فيها مقتبسة من الآرامية، وقد أدخلها المبشرون المانويون. وإن كثيرًا من المخطوطات المكتشفة ليجلّي علينا من آيات الجمال ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البندكتيون. وقد وجد بعض الرَّق [٣] (Parchement) مشدودًا في النوافذ مكان الزجاج. وفي هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية، وجدت مختلطة بمقدار كبير جدًا من الأدب المانوي. وما برح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها بالفحص الدقيق.

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوي الأوسط، كان لا يزال إلى حد كبير آريًا لغة وثقافة، وكان فنه لا يزال في جل أمره هندي الأرومة أو فارسي الأصول. وتدل كل الدلائل على صحة الرأي القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث وتأخر، كانت بالمقارنة عصر تقدم في آسيا الوسطى فما وليها شرقًا حتى بلاد الصين. ولسوف نحصل يومًا على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحداث التي حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التي عمت فيها الفوضى أوربا - إذ حظيت حضارة ذلك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موائمًا، بدور رقي غير عادي. وفي برلين الآن مجموعة من الرسوم الجدارية المنقولة من التركستان في تلك المدة، وكأنما هي تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعد ذلك بستة قرون) بفرنسا وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات. فإن الأشكال والرموز المألوفة للملوك والملكات والغلمان في ورق اللعب مثلاً، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية. فقد كانت هناك حياة تبلغ في جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى الأوربية في أزهى أحوالها وهي تشابهها مشابهة عجيبة. ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر، ويكثر الأصهبون [٤] وهم في العادة نتيجة للتخليطات العنصرية.

---

[١] يعني المؤلف بلفظه "أدب" المعنى العام للكلمة الذي يدل على جميع ما سطر في اللغة من كتابات ومؤلفات. (المترجم).

[٢] الصغدية نسبة إلى صغديانا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى. (المترجم).

[٣] الرَّق (بفتح الراء) جلد رقيق يكتب فيه. (المترجم).

[٤] الأصهب هو الأحمر الشعر. (المترجم)

وكانت الشعوب الهونية التي صارت تسمى آنذاك تتارًا وأتراكًا تقوم في شمال بحر قزوين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس، ولكن يجدر بنا أن نعدها فيضًا للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها. وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية لا يزال في معظم شأنه عالم ترحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية. ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول هاهنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم، وهو النزاع الأبدي بين الطوراني [1] والإيراني. ولسنا نسمع شيئًا عن أي زحف عظيم للفرس نحو الشمال، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خليقة بالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن تبدأ مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب، وهي التي حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوربا. وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوبًا مخترقين أفغانستان إلى الهند، وذلك فضلاً عن هذه الحركة المتجهة نحو الشمال الغربي. فكأن هذه الأنهار الجياشة بالمترحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس. ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة "يويه تشي" الذين انحدروا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهندوإسكيذيين في القرن الثاني. على أن قسما متأخرًا من هؤلاء اليويه تشي ظل مقيما على بداوته بآسيا الوسطى، وتكاثر عددًا في سهوب التركستان، وهم يعرفون باسم الإفثاليين أو الهون البيض. فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر إزعاج وخطر على الفرس، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند في أثر أقاربهم حوالي ٤٧٠، وكان هذا بعد موت أتيلا بحوالي ربع قرن على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهند، بل ظلوا ينتهبون في البلاد ذهابًا وغدوًا، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلي، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوربا.

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان: غزو اليويه تشي أي الهندوإسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهلّيني، ثم غزو الإفثاليين. وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء، أي الهندوإسكيذيين أمامها، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم الساكا (Sakas)، وبذا تكون الهند قد لقيت في النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م. غير أن الثانية من هذه الغزوات، هي الوحيدة التي غدت فتحًا مستديمًا واستقرارًا مقيمًا. واتخذ الهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسي على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة، هي أسرة كوشان (Kushan) وهي التي حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقًا.

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول)، وهو الذي ضم إلى شمال الهند كلا من قشغر ويرقند وخوتان. وكان – مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) – عاملا قويًا على رفع شأن البوذية، ولا بد أن هذه الفتوح التي تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشمالية الغربية، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة.

---

[1] أطلق الإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المترجم).

ولن نهتم ها هنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام واتحاد وتحالف، لاستعصائها على البحث ها هنا في هذا الحيز الضيق بين أيدينا. فكانت الهند في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج؛ وربما تغلبت إمبراطورية كإمبراطورية الجوبتا (Gupta) على مساحات عظيمة منها. وازدهرت إمبراطورية الجوبتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس. وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية العصرية، وظهرت فترة من النشاط الأدبي العظيم. على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلاً طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية. وصمدت البرهمانية في وجه البوذية وازدهرت الديانتان جنبًا إلى جنب. وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جدًا؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبني بيوتها على نفس الشاكلة الحالية.

وغارات الإفثاليين جديرة بالذكر، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائع. فقد كان هؤلاء الإفثاليون أقرب الناس شبهًا بهون أتيلا في بربريتهم؛ كانت الغارة كل همهم، فلم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان؛ واحتفظ رؤساؤهم بمركز قيادتهم العليا في التركستان القريبة. وقد سمى ميهيراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيلا بلاد الهند: ويروى أن إحدى تسلياته المحبوبة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة، هي دحرجة الفيلة في الهاويات للتفرج على آلامها. وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨). على أن القضاء النهائي على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسي للإفثاليين على نهر سرداريا أو سيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية، إذ هاجموهم متحالفين مع الفرس. وما لبث الإفثاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالاً سريعًا تامًا وانصهروا في السكان المحيطين بهم، مثلما فعل الهون الأوربيون بعد وفاة أتيلا قبل ذلك بمائة سنة. ذلك أن البدو المترحلين الذين ليس لديهم أرض مراع مركزية لا بد أن يتفرقوا، إذ ليس أمامهم غير التشتت من سبيل. ويقال إن بعض عشائر الراجبوت (Rajput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راجبوتانا في شمال الهند، تنحدر من هؤلاء الهون البيض.

وإنا لمضطرون أن نمسك آسفين تمامًا عن الإدلاء بأي بيان عن تطور الفروسية في هذه الولايات الراجبوتية الصغيرة، وهي عجيبة المماثلة لتطور الفروسية المعاصرة لها في أوربا.

ثم إننا لا نستطيع أيضًا أن نتتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندي بين أيام الإسكندر ومجيء الإسلام، إذ لم يقم أي دارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهد لنا السبيل في هذا الصدد. ولا يخفى أن التأثير الهلِّيني في الفن الهندي والعمارة الهندية عميق، والراجح أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند. وذلك أن الفن البوذي تتجلى فيه روح هلّينية قوية. ولما حدث في القرن الثاني وما يتلوه من قرون ميلادية، أن انتشرت البوذية في الصين كما سبق أن ذكرنا، حملت معها شيئًا من رشاقة الفن الهلّيني وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى الفن الديني الصيني عامة. ولكن للهند مناخًا قتالاً يقضي على كل عمل فني قديم مهجور. فإن أسرات مالكة من التي كاد النسيان يعفى عليها تمامًا، كانت تعيش بالهند عيشًا جميلاً مترفًا، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال.



(شكل ١٢٥) عملة إفثالية

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقى عن هذا الزمان، وهو يرى في كهوف أجانتا (Ajanta) المنقوشة جدرانها التي أخذت صورها تذوى وتتعسر رؤيتها. ومن حسن الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بواسطة الجمعية الهندية. وتوجد أجانتا في حيدر آباد في ممر هام بجبال فندهيا، وقد كان هناك بين الق رنين الث اني والسابع الميلاديين دير بوذي به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر، وفي هذه الفترة وفي القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين، زينها عدد من الفنانين المهرة الموهوبين. وإنا لننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين، فإنها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأم ور م ن ذاكرة الناس تمام الزوال. ولا تزال موضوعات تلك الصور في كثير من الحالات موضع نظر وأخ ذ ورد. فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور حوله؛ وبعضها تب دو خاص ة ب الرب إن درا (Indra)، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية. وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من كسرى الثاني أبرويز. وقد زار هذه الكهوف والنقوش في أيام محمد ﷺ يوان تشوانج، وهو رحلة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل.

٧- أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، تتحطم ثم يعاد سبكها، – شهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جدًا في العالم الصيني. ويتسع بين المؤرخين الصينيين واليابانيين والأوربيين فرض مفاده أن عهدي أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في بداية هذه المدة وأسرة تانج التي بها انتهت، يعتبران من عهود الرفعة المتماثلة، وأنهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد، وأن قرون الانقسام الأربعة التي مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨)، كانت قرون اضطراب لا قرون انتقال ضروري. ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي إلا انقسامات سياسية ومحلية. إذ ينخدعون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت في مستهلها، تشغل نفس المركز في آسيا، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الفكرات – وهم في ذلك يتجاهلون عمليتي الهدم والبناء الجوهريتين اللتين ظلتا تجريان، كما تفوتهم أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر على الصين وأوروبا من أحداث.

حقًا إن الانهيار الاجتماعي لم يبلغ أبدًا في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأوربي. فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل التحسين والإتقان في كل فنون الحياة. فلم يحدث بها تقوض تام في النظافة والزخرفة والإنتاج الفني والأدبي كالذي علينا أن نسجله في الغرب. وليس هناك مثيل لما حدث في أوربا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة. فإنا نلحظ مثلاً أن "الشاي" ظهر في العالم، وفشا استعماله في كل أرجاء الصين. وبدأت الصين تحتسي الشاي في القرن السادس الميلادي. وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثاني والفنجان الثالث، وهكذا، واستمرت الصين تنتج تصويرًا جميلاً بعد سقوط أسرة هان بزمن بعيد. ففي القرن الثاني والثالث والرابع، نقشت مناظر طبيعية [1] برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور. واطرد ظهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحائت الجميلة. ولم ينقطع إنشاء المباني الرشيقة وأعمال الزخرفة. وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب في نفس زمان احتساء الشاي، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر.

---

(1) المنظر الطبيعي البري Landscape: منظر أرضي كمنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزءًا مهما من الصورة. (المترجم).

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها. فلم يكن للصين عملة عامة. ولذا فإن ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقدًا وائتمانًا [1]، وهو النظام الذي يجمع بين الكفاية والخطر في وقت واحد، لم يكن مما ابتليت به الصين في حياتها الاقتصادية. وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة. فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل في صفقاتها الصغيرة "نقدًا" مثقوبًا من الزنك والنحاس، فأما في الكبرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مدموغة من الفضة. وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشرًا في بابل أيام التجار الآراميين [2]. وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين.

ولقد رأينا كيف قُضي على النظام الاجتماعي والاقتصادي في الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية، تلك السيولة الشديدة التي أوجدتها النقود. فأصبحت النقود شيئًا مجردًا قائمًا بذاته، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التي كان مفروضًا أنها تمثلها. فوقع الأفراد والمجتمعات في الدّيْن وقوعًا مخالفًا لكل معقول، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها. فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالي. بل ظلت الثروة في الصين حقيقية ومرئية ملموسة. ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أي قانون ليسيني (Licinian) ولا إلى تيبريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين [3]. ففكرة الملكية في الصين لم تتجاوز كثيرًا حدود الأشياء الملموسة. فلم يكن بها "عمال" أرقاء ولا جماعات مستعبدة في الخدمة. وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يُبعن ويُشترين بيع الرقيق، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة طفيفة لما عليه النساء من مألوف الذل المنزلي. وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو في معظم الحالات المالك الفعلي لها أو يكاد، ولا يدفع إلا ضريبة الأراضي. وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضي ذات الرقاع الصغيرة، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة. وكان من لا أرض له من الرجال يعمل أجيرًا مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عينًا – شأن ما كان يحدث في بابل القديمة.

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافي كان من عوامل الوحدة؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت، وربما يكون الترف عامل وَهَنها، وعندما حدث آخر الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم، وهو نفس الوباء الذي بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرنًا من الارتباك والاضطراب، انهارت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ريح عاصفة. وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة.

---

(1) نظام الدفع نقدًا وائتمانًا Cash & Credit System (المترجم)

(2) الآراميون: قبائل رحل بشبه جزيرة العرب. رحلت إلى وادي الفرات في ١٥٠٠ ق. م. واقتبسوا حضارة الأموريين والكنعانيين ونشروها في سوريا. (المترجم)

(3) انظر المجلد الثاني من المعالم ص ٥٦٨ ط ٣. (المترجم).

ويعزو المستر فو كثيرًا من خوَر الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت – فيما يرى – عن المذهب الفردي المتشكك الذي أنشأه لاوتزي ويعرف دور الانقسام هذا باسم "عهد الممالك الثلاث". وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعًا ما، وقد فرضوا أنفسهم حكامًا على مقاطعة شن سي (Shen-Si). ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب، بل مساحات عظيمة من سيبيريا؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية، وحمل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قُدُما حتى الدائرة القطبية. ويوازن المستر فو بين هذه المملكة السيبيرية وبين إمبراطورية شرلمان في أوربا التي سنصد فها لك من فورنا. فمعناها عنده أن البربري أصبح ذا طابع "صيني" مثلما أن شرلمان البربري أصبح رومانيًا.

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأهالي، أسرة سوي (Suy) التي فتحت الجنوب. وتؤذن أسرة سوي هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين. فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوي، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبي العظيم. ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٥٤ ألف مجلد. وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون.

ويصر المستر فو على أن نهضة الصين التي ابتدأت بأسرة سوي وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلادًا حقيقيًا جديدًا للبلاد. وهو يكتب قائلاً: "لقد ظهرت روح جديدة، وهي تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تمامًا عن كل ما عداها. إذ إن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض، وهي: (١) الثقافة الصينية المتحررة [1]، (٢) المذهب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism، (٣) البوذية الهندية، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال.

"لقد ولدت صين جديدة، فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكري عند أسرة تانج مختلفًا تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها. وتأثرت الفنون أيما تأثر وانتعشت كثيرًا بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى. ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم؛ بل كان إنتاجًا جديدًا. وكانت مدارس البوذية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية.

"وربما لذ لنا أن نقارن تكوين الصين هذا، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية في أخريات أيامها. فكما كان العالم الروماني مقسمًا إلى نصفين غربي وشرقي، كذلك كان العالم الصيني مقسمًا إلى شمالي وجنوبي. وقد قام البرابرة في حالة الصين وحالة روما بإغارات متماثلة. وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد. وضارعت إمبراطورية شرلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واي Wei) التالية؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد جستنيان، استرجاع الشمال مؤقتًا على يد ليويو (Liu-yu). ويضاهي الفرع البيزنطي الأسرات الجنوبية. على أن العالمين تفارقا من هذه النقطة. فاستعادت الصين وحدتها؛ على حين لا يزال باقيًا على أوربا أن تحذو حذوها".

---

[1] Liberal Culture وفي ذلك الضرب المستنير المهذب من الثقافة الخليق بالسادة المهذبين والجنتلمانية. (المترجم).

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاي تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) – وهو ثاني ملك في أسرة تانج – تمت د جنوبًا إلى أنام (Annam) وغربًا حتى بحر قزوين. وكانت حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تس اير حـ دود فارس. فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاي من سهوب القرغيز في شمال صحراء جـ وبي. بيـ د أنها لم تشمل كوريا التي غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته. وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضـ ارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم في الجنس الصيني، وكما أن صينيي الشمال يسمون أنفسـ هم "رجـ ال هان"، يسمي صينيو الجنوب أنفسهم "رجال تانج Tang". وتم تنسيق القوانين وجمعها في مدونات، ونقح نظام الامتحان الأدبي، وأصدرت طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة.



(شكل ١٢٦) الإمبراطورية الصينية

ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية

ووفدت على بلاط الإمبراطور تاي تسُنج بعثة سياسية من بيزنطة، وأهم من ذلك، أن قد أتت من فـ ارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاي تسنج باحترام عظيم. واستمع منهم إلى أهـ م مـ واد عقيدتهم، وأمر بترجمة الكتب المقدسة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فيما بعد.

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تمامًـ ا، وأنـ ه يجـ وز التبشـ ير بهـ ا فـ ي الإمبراطورية. كذلك سمح ببناء كنيسة وتأسيس دير. ويوجد في سيان فو (Sianfu) اليوم حجـ ر منحـ وت يدعونه الأثر النسطوري يرجع تاريخه إلى ٧٨١م، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية.

كذلك حضرت إلى بلاط تاي تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجيء النساطرة بسبعة أعوام. وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحرًا في فلك تجاري. (ومن الشائق أن نلحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التي كانت تعمل في التجارة بين الغرب والشرق في ذلك الزمان). أرسل هؤلاء العرب محمد (ﷺ) الذي سبق لنا ذكره والذي نعت نفسه "نبي الله". والرسالة التي أحضروها إلى تاي تسنج هي فيما يرجح نفس الدعوة التي أرسلت في السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البيزنطي وإلى قباذ في طيشفون [1].

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لذة عظيمة في آرائهم اللاهوتية، وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب في كنتون – وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا.

([1]) هي مدائن كسرى: عاصمة الساسانيين وتقع . ج. ق بغداد. (المترجم).

٨- أغلال الصين الذهنية

كان تحضرُّ [1] الصين وثقافتها وقوتها في ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضًا ناصعًا واضحًا للانحلال والفوضى والانقسامات في العالم الغربي، وهي حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة في تاريخ المدنية. فلماذا لم تحتفظ الصين بتلك الزعامة التي فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام؟ فلماذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافيًا وسياسيًا؟

لقد ظلت زمانًا طويلاً وهي على التحقيق السباقة المتقدمة. وما نستطيع أن نقول مع الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرع يسبق الصين من جديد، إلا بعد ألف سنة، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعليم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمي العصري. ففي عهد أسرة تانج، وهو أعظم عهودها، وفي ظل أسرة صنج (٩٦٠ – ١٢٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شيء من التدهور، ثم كذلك إبان حكم آل منج المثقفين (١٣٦٨ – ١٦٤٤)، تتجلى الصين للعالم في مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفني المتقدم أشواطًا بعيدة على أي دولة معاصرة. فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان [2]، فلماذا لم يكتشف الصينيون قط أمريكا أو أستراليا؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور، ربما دلت على أن سفنًا صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية في تاريخ ما غير معلوم، كما يقال إن هناك آثارًا تدل على نزول زوار صينيين في بلاد المكسيك، فلئن صح هذا، فإن واحدًا من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه أُتْبع بغيره مثلما لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقية أو مثلما لم تتبع زيارات أهل الشمال (North men) لأمريكا بزيارات أخرى. ويقول المستر فوجان: إن هناك أيضا رسومًا صينية محفورة في الصخور في نيوزيلندة ونيوكاليدونيا. على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل، لا يكفي لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات في يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتي ثماره ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال. ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعدًا لتقبله والإفادة منه.

---

(1) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية دماثة الأخلاق وحسن الآداب والتهذيب وهي صفات أهل الحضر. (المترجم)

(2) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية. ويستخلص هيرت في كتابه "تاريخ الصين القديم"، ص ١٢٦ فما بعدها، بعد فحص دقيق لكل العصور والأزمنة، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شيء كالبوصلة عرف في الأزمنة السحيقة، فإن العلم به احتواه النسيان لمدة كبيرة بعد ذلك، حتى ظهر مرة أخرى في العصور الوسطى كآلة بأيدي اللحادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع للقبور إلخ). وأول ذكر واضح لاستعمالها كمرشد للبحارة ورد في كتاب في القرن الثاني عشر" يشير إلى استخدامها في سفن أجنبية بين الصين وسومطرة. ويميل هيرت إلى الاعتقاد بأن الرواد العرب يحتمل أن رأوها في أيدي لحادين صينيين ثم طبقوا استعمالها على الملاحة، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادتها إلى الصين في صورة البوصلة البحرية. (المؤلف).

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع – وإن كانت فردية منعزلة متفرقة – ما لا يقل عما في أي جزء من أجزاء العالم. وعرف الصينيون البارود في القرن السادس. واستعملوا التسخين بالفحم الحجري والغاز استعمالاً محليًا قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوربا بقرون. فأما إقامتهم للكباري وهندستهم المائية فمدهشة جديرة بالإعجاب؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تتبدى في الآنية المطلية بالميناء واللاكيه [1] لعظيمة جدًا. فلماذا لم ينشئوا قط طريقة التسجيل والتعاون في البحث، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث للعالم؟ ولماذا، بالرغم من مرانهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهني إلى كتلة السكان العامة ولم يتخللها؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالبًا ما تكون جوفاء. فيقال لنا إن الصيني أشد المخلوقات البشرية محافظة، وإن عقله – على نقيض الأجناس الأوروبية – ملفوت نحو الماضي، وإنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربي. وهو يمثّل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالبًا أن يجد في تركيب المخ فارقًا يفسر ذلك الاختلاف. والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم.

على أننا لو فحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصًا أدق وأضبط لتبدد في الهواء هباء منثورًا. فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلي المتحرر والميل إلى التجريب، تلك المزايا التي نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربي، لا تتجلى في تاريخ هذا الذهن إلا في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية. وفيما عدا ذلك، لا يتجلى العالم الغربي إلا مضارعًا للصين في التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم. ومن الناحية الأخرى، فإن العقل الصيني كان إذا حفزه حافز يبدي قدرة على الاختراع والابتداع وتعددًا في المزايا كالأوربي سواء بسواء، كما أن الذهن الياباني المجانس له يكاد يفوقه في هذا. فإذا اتخذت من الإغريق مثالاً، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعًا في المدة بين القرن السادس ق. م. وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين في القرن الثاني ق. م. ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده، بيد أن تاريخ ألف سنة من سني الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهلّيني راكد الذهن كالصين سواء بسواء. ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالي نسبيًا أثناء العهد الروماني، وإلى وفرة خصبة منذ "نهضة إحياء العلوم". وكذلك الذهن الإنجليزي، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر. كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا، قد تألق تألُّق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أي شيء ذي بال. ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر في الصين، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية. وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لآبائهم؛ فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعًا بين أباطرة الصينيين، لدى حكام فارس أنفسهم. وفضلاً عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثت بالصين حركات تحريرية كثيرة، وكفاحات عديدة ضد "الأساليب العتيقة".

([1]) اللاكيه Lacquer دهان محلول اللك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لاكا Coccus Lacce الذي ينتج صباغًا أحمر زاهيًا. (المترجم).

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهني الحقيقي في أي مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول، بلغت من الحرية مبلغًا يجعلهم لا يكدحون ولا يحملون هما يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية، ولم يبصل في ثرائها وسعة سلطانها إلى حد يغريهم بالإسراف في الشهوات أو المظاهر أو القساوات. ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة، لا غرور به التفوق. وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تتهيأ لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة. ويجب ألا تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لأية آراء قد تعبر عنها. ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق في أحسن أيامها. والواقع أن طبقة من القوم الأذكياء المهذبين الأحرار تتبدى على صفحات التاريخ حيثما ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمات علمية فعالة.

ولا بد أن الصين كانت تضم في أيام تانج وصنج ومنج كثرة من القوم المنعمين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان "أكاديمية" أثينا أو أذكياء إيطاليا النابهين في عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية، وهي الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرص التي أتيحت لها شيئًا يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة.

فإذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب، تلك الفوارق التي تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم، وتجعل الغرب تقدميًا بطبعه، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق في روح التقدم ملتمسين إياه في نواحي أخرى. ويميل كثير من الناس أن يبحثوا في اتجاه آخر عن السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة – وهم يرون أن تكبيل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلي والصعوبة حدًا جعل طاقة البلاد العقلية مستنفدة استنفادًا عظيمًا في تحصيلها هو مرد ذلك كله. وعندي أن هذا الرأي جدير بالفحص والنظر.

وقد سبق أن أعطيناك بيانًا عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية. والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدوينًا. والعدد الكبير من هذه الصيغ "كتابة تصويرية رمزية" [١] منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية الصينية، على أن هناك كذلك عددًا من العلامات يستعمل للتعبير عن المقاطع؛ ولليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتي سبق أن وصفناها. ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسماري سواء بسواء، وإن لم تصل بسماجتها وتعقيدها إلى درجة الصينية؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية. على أن كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها.

---

(١) "كتابة تصويرية رمزية Ideograms" أي رموز كتابية هي كما أسلفنا جـ ١ ط ٣ من المعالم ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل في نظام الكتابة.

وفيما عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم، تقوم على أبجديات البحر المتوسط، وهي أسهل حفظاً وإتقاناً من الصينية بشكل لا يسمح بأية موازنة. ومعنى هذا أنه بينما الشعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المألوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبيًا، فإن الصيني ملزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة. فليس عليه أن يتعلم العلامات وكفى، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضًا، حتى يتاح له إظهار المعاني المختلفة. فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ مثالاً يحتذى. وبناء على هذا، فبينما أنت واجد في الصين أعدادًا عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور، فلن تجد إلا القليلين ممن تتسع معارفهم لإدراك معنى فقرة في إحدى الصحف، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرءوا ما قد يرمي إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أية ظلال ممتازة للمعاني. وهذا يصدق أيضًا على اليابان وإن يكن بدرجة أقل. ولا مراء أن القراء الأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلتزم نظامًا بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجليزية والروسية، يختلفون اختلافاً عظيمًا فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها؛ فإن قوتهم في اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات؛ بيد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين، يستدعي تحصيله بذلاً من الجهد والوقت أعظم كثيرًا. فإن تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) في الصين إنما هو في معظم شأنه تعلم للقراءة.

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقات المتعلمة أثناء سني قابليتها للتعلم والاستيعاب وإكبابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التي أنفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة. وقل من الرجال الذين كدحوا في عقولهم بعلم من العلوم، من يطّرح برضاه ذلك العلم جانبًا، مفضلاً عليه شيئًا آخر جديدًا غير مألوف. وغني عن البيان أن هذا الميل شيء لا ينفرد به الشرق دون الغرب، وهو يبدو ظاهرًا ملموسًا عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلما يتجلى لدى أي ماندرين صيني. وإن البريطانيين في الزمن الحاضر، ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الهمجية في الهجاء والإملاء، بالرغم من المزايا العظيمة الواضحة التي ستعود على التعليم الشعبي والدعاية القومية من الانتقال إلى الأبجدية الصوتية [1] والهجاء الصوتي. ولا بد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصرًا بعد عصر بعملية غربلة قوية تظاهر العقول المفرغة في قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الحذلقة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراز الجامح الخلاق، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان. وعندي أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبير.

([1]) الطريقة الصوتية Phonetie في الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتمسك بالإملاء التقليدي المعروف للكلمات وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة. (المترجم)

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبيًا. وكانت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم، استردت الصين بعد حكم المغول. ويقول المستر ل. ي. تشن L. y. Chen: إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقًا: "لسوف يجلب هذا إلى مصيدتي كل من في العالم من ذوي العقول". وقد سجنت "الآداب القديمة الخمسة والكتب الأربعة" عقل الصين في محبسها. فعندما يحل الزمن الذي ينتهي فيه أي رجل من شق طريقه فيها كدحًا وكدًا يكون تقدير القيم لديه، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد.

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولاقتباس طريقة أبجدية. ففي أيام البوذية الأولى بالصين، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية: أوشكت المؤثرات الهندية على بلوغ تلك الغاية. وقد اخترعت في الواقع أبجديتان صينيتان، وحظيت كل منهما بشيء يسير من الاستعمال. ولكن الشيء الذي حال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين، والذي لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أية "طريقة صوتية" للكتابة الصينية، هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة الفصحى واحدًا لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها. فإن لغة العامة المتداولة تختلف في كل من طريقة نطقها وصيغها الاصطلاحية المألوفة اختلافًا يبلغ من الاتساع حدًا يجعل الرجل من أبناء إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى. وهناك على ذلك "لغة صينية فصحى" وهي عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين في الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة في هذه الصينية الفصحى. وقد صيغت أبجدية صينية، وهي تعلم في المدارس العامة، وتنتشر بها الصحف والنشرات. وقضي على نظام الامتحان الجامد الذي قتل كل ابتكار فكري خلاق.

كذلك أحدثوا تبسيطًا جسيمًا يتمثل في إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبة. وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح. فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة، وهي مكيفة لحاجات التعبير الأدبي العصري تكييفًا أوفق كثيرًا من الصينية الكلاسيكية القديمة.

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق. فإن ما نالته الصين في الماضي من النجاح والرخاء القديم والقناعة العامة، لا بد وأنها عملت عملها بتلك البلاد لتبرير كل ما فطر عليه جنسنا البشري من طمأنينة نفسية وروح محافظة طبيعيين. فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير، ما حسنت أحواله حسنًا يكفل له البقاء في وقته الراهن. ولا يزال الإنسان في هذا الأمر حيوانًا. وقد ظلت الصين ما يربو على الألفي سنة حتى القرن التاسع عشر، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأي شكوك خطيرة حول تفوق مدنيتها بوجه عام على مدنيات العالم كله، ولم يكن هناك تبعًا لذلك أي سبب ظاهر يحدو بالصيني إلى إحداث أي تغيير. فقد أنتجت الصين فيضًا وفيرًا من الفن الجميل وبعض الشعر الممتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايين

من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلاً بعد جيل. وكانت ولا تزال بلاد ملكيات صغيرة؛ وكل الأيدي فيه ا مطلوبة، ويمكن استخدامها جميعًا في أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد. هذا إلى أن هن اك مناف ذ أمام القوى الجانحة إلى الاتساع. إذ لا يزال في الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن ف إن شيئًا ذا بال لم يحدث، فلم يقم توتر داخلي حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية القائمة على نظام الأبوة. وهي العائلة التي تُزوِّج أبناءها في سن مبكر وتحتفظ بهم في المنزل قب ل أن يحصل وا عل ى الاس تقلال الاقتصادي. هكذا سارت الصين في طريقها عصرًا بعد عصر، ولا تزال تسير دون أن يداخلها أي شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا التعس العام التي كانت تحف بحكم الأغنياء الإمبراطوري ة الرومانية، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها. أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير. بيد أنه ل م يكن فقرًا جماعيًا لقوم مطرودين من أملاكهم، ولم يكن استياء شعبيًا لا مناص منه. فبعد كل شدة وبع د ك ل كارثة، تبرأ نفوس السكان، وتلتئم الجراح. ولقد عمر النظام الصيني ألف سنة، لاح فيها ممتنعً ا عل ى ك ل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنح. أجل حدثت تغييرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة؛ كما حدث غزوان عظيمان نصبا أسرتين أجنبيتين على عرش" ابن السماء"؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلابًا ثوريًا في نظام الحياة اليومية. وقد يأتي الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون؛ فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما ه ي علي ه. فالمدنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج فما بعدها، تنتشر في بطء واستمرار في أن ام وكمبودي ا وس يام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا، لا تنطوي على شيء نستطيع تسجيله لها ع دا ذل ك التق دم الجغرافي. وكان صينيو القرن السابع الميلادي شعبًا ممدنًا يعادل في كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة.

٩- الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندلي بكلمة حول فن الصين وعمارتها في عهد أسرتي هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى. والصينيون، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحللها، فضلوا على الدوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر في المباني. ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين. ولا يكاد التاريخ يسجل لنا فيما قبل القرن الحادي عشر الميلادي أي خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السور العظيم. على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة "تسي إن" أو أبكر منها.

وأقدم أشكال المباني تشتق اشتقاقاً مباشرًا من الخيمة المغولية. وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذي قد يكون ثنائيًا أو ثلاثيًا وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللك (الجملكّة). وربما كان السقف نفسه مغطى بقراميد صقلية ألوانها زاهية، والمباني على العموم ذات طابق واحد وتنتشر انتشارًا أفقيًا. وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث في التصميم الصيني هي الممرات التكريمية ذات العقود. وتكثر القناطر الحجرية، والكثير منها على درجة عالية من الرونق. والباجودا [1] المشيرة إلى السماء طراز ثالث للبناء، وهذه ومعها الشرفات والدرابزينات تكمل الصورة العامة للمباني الصينية. تلك هي الصورة الممثلة للفن المعماري في الصين في أوائل الحقبة المسيحية، وهي لا تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا. ويقال إن الباجودا – وربما كان ذلك غير صحيح ترجع إلى بدايات هندية بوذية، وأنها المعادل الصيني "للإستوبا" التذكارية الهندية.

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره في معرفتنا بفن التشكيل الصيني قبل أسرة هان. ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد. فإنا نعرف بوجود زلع [2] وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج. وهي من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات المماثلة التي لم يبق منها اليوم شيء. ولسنا نصل إلا في عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية، إلى دور من أدوار الحياة الصينية ترك آثارًا كثيرة في أية مادة أخرى عدا هذه.

ويحدثنا أهل الذكر أن "التصوير" كان فن الصين الأساسي، وكانت تصنع من أشغال بالغة الجمال والرونق في عهد أسرة هان. وينوه التاريخ باسم كوكاي تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادي) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش [3] الصينيين. ولا تزال بعض أعماله باقية، ويتجلى فيها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود مدرسة راسخة القدم في الفن فعلاً. والتصوير الصيني يُعمل دائمًا أبدًا بالألوان المائية. وإنا لنجد بدلاً

---

(١) الباجودا أو الإستوبا: نصب بوذي على صورة أكمة ذات قبة. (المترجم).

(٢) الزلعة وعاء معروف، وهو الجرة الكبيرة. (المترجم)

(٣) المرقاش هو ريشة المصور. (المترجم).

من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات) [١] الكبيرة صورًا رقشت على الحرير والورق، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيما تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief). فهي مسطحة [٢] هوائية رقيقة، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التمثيل الدقيق المجسم البشري. وعصر أسـ ـرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني.

فأما فن النحت الصيني فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصيني ولا يكاد يكون له شأن يـ ـذكر إلـ ـى جوار الإنتاج الأوربي، على أن الخزف الصيني من الناحية الأخرى فائق في امتيـ ـازه. فقـ ـد جـ ـرت عـ ـادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنار حرارتها أشد كثيرًا مما جرت به العادة في العالم الغربي، وأنتجـ ـوا عنـ ـد نهاية حكم أسرة تانج خزف البورسلان [٣] وما لا نظير له من أنواع التزجيج [٤] واتصف خزف أسرة هـ ـان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع. وتوجد الآن في المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيل والجمال وما إليها، وكلها ترجع إلى زمن أسرة تانج. وقد استخرجت كلهـ ـا مـ ـن القبور، وكان الأصل في وضعها في هذه القبور أن تحل محل العُبْدان والحيوان التي كانت تسفك دماؤها في ماض أكثر همجية. واستمرت مذابح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المغـ ـولي الراحـ ـل بالخدمـ ـة والدواب في أرض الظلال: (القبور والموت)، استمرت في الصين حتى القرن السابع أو السادس ق. م. ثـ ـم استبدلت بها التماثيل. على أن الهون في أيام أتيلا ما برحوا يراعون العادة القديمة، عادة الذبح الحقيقي. على أنها كانت بادت في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية.

---

(١) التصوير الجصي أو الفرسكو Frescoe ضرب من الصور وطريقة للتصوير الثابت على بياض الجدران الطري كثيرًا ما تخلط فيه الألوان بزلال البيض. (المترجم)

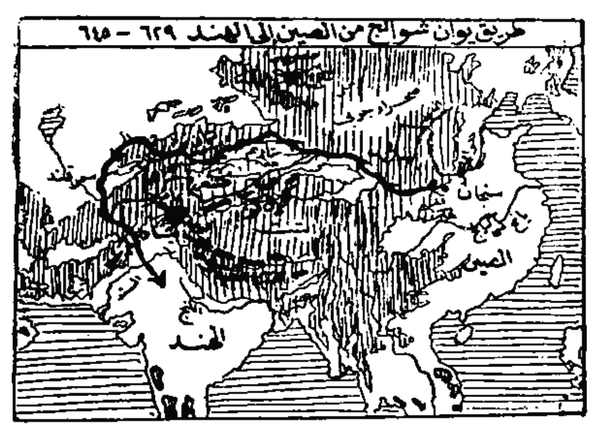
(٢) الصورة المسطحة: هي التي ليس فيها ما يوحي بالعمق والمسافة. (المترجم)

(٣) خزف البورسلان Porcelain : صنف من الصيني أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولاً بالصين. (المترجم).

(٤) التزجيج: وضع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف. (المترجم)

١٠- رحلات يوآن تشوانج

في عام ٦٢٩، وهي السنة التالية لوصول مبعوثي محمد (ﷺ) إلى كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجوري إلى إنجلترة بنيف وثلاثين سنة، قام عالم بوذي متبتل يدعى يوآن شد وانج أو (هيو وين تسيانج) كما يفضل بعض الثقات أن يكتبوا اسمه – برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أي (سيجنان) وهي عاصمة تاي تسنج. غاب عن بلاده في هذه الرحلة ستة عشر عامًا، وعاد (٦٤٥) وكتب عن رحلاته بياناً يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة. وإن فيما مر به من تجربة لنقطة أو نقطتين جديرتين بالملاحظة ها هنا، لأنهما تساهمان بقسط في استعراضنا العام لحالة العالم في القرن السابع الميلادي[1].



شكل (١٢٧) خريطة تبين طريق يوان شوانج
من الصين إلى الهند ٦٢٩ – ٦٤٥

كان يوآن تشوانج نظيرًا لهيرودوت في غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها، وإن أعوزه ما للكاتب الثاني من الحاسة التاريخية الممتازة؛ فلم يكن ليطيق أن يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ما خرافية. وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب، هي التي منعته من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله، ومن كان برفقته، وكيف كان يقيم، أو ماذا كان يأكل، وكيف كان يدفع نفقاته – وهي تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ؛ ومع ذلك، فإنه ينفحنا مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند في المدة التي نحن بصدد بحثها.

---

[1] عن وصف جغرافي تفصيل لتلك المناطق انظر الطبعة الثالثة المجلد الثاني من "المعالم" ص ٦٤٦ (المترجم)

كانت رحلته رحلة هائلة. ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة البامير. فذهب بالطريق الشمالي عابرًا صحراء جوبي، مسايرًا المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان، مطوقًا حافة بحيرة إسيك كول (Issik-kul) العظيمة العميقة الزرقاء، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند، ثم سار يترسم إلى حد ما خُطى الإسكندر الأكبر متجهًا جنوبًا نحو ممر خيبر وبيشاوار. ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترقًا" البامير من أفغانستان إلى قشغر، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذي اتبعته قبيلة "يويه تشي" في اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون، ومر بطريق يرقند على امتداد منحدرات الكوين لن، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم. وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقًا شاقًا لجبال وعرة. وليس من المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عامًا، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيبال إلى سيلان.

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطوري يحرم السفر إلى الخارج، حتى لقد انطلق يوآن تشوانج من سيان في خفيه كأنما هو مجرم هارب. وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه. وإن القارئ ليجد في كتابه "الحياة"، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصانًا هزيلاً أحمر اللون يعرف طرق الصحراء ومسالكها، وكيف تفادى مخفرًا على الحدود بمساعدة "شخص أجنبي"، صنع له على النهر جسرًا من الحسك أدنى من ذلك الموضع، وكيف أنه عبر الصحراء مسترشدًا بعظام الموتى من الرجال والماشية، وكيف رأى سرابًا، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الخفارة في الطريق الصحراوي. وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي، وظل أربع ليال وخمسة أيام ولا ماء معه؛ وتجمد اثنى عشر نفرًا من رفاقه وماتوا بردًا وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد. كل هذا الذي رويناه موجود في كتاب "الحياة"؛ إذ إنه لا يقول عن ذلك غير القليل في بيانه الشخصي عن أسفاره.

وهو يعرض علينا الترك – وهم التطور الجديد لمجتمع الهون، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمالي بأكمله. وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها. ويولم له الولائم حكام عديدون، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر في ثياب خضراء من الأطلس، وقد عقص شعره الطويل بالحرير.

"وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط في صفوف طويلة على كلا الجانبين، وكلهم مرتد ثيابًا فاخرة من وشي الديباج، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم. ولقد رأيت أنه وإن كان واليًا من ولاة مناطق التخوم، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف. خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذي دخل الخيمة بعد تحية كريمة.. وبعد فترة وجيزة، أدخل على الخان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم، فقرأها الخان وسر منها كثيرًا، وأمر فأجلس الرسل؛ ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقى وبشراب العنب للحاج. وعند ذلك تبادل القوم الأنخاب، وكان

لملء كئوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف، بينما ارتفعت أنغام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة، ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية. وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب. وبعد انتهاء الوليمة، قدم شراب العنب مرة ثانية، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ "الفضائل العشر" والرفق بالحيوان وكمالات البارامينا (Paramitas) [1] وفك الرقاب. فانحنى الخان رافعًا يديه وأمَّن مسرورًا مغتبطًا وتقبل التعاليم".

وبيان يوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء، "إنها مستودع تجاري عظيم، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الخصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الخيول الصافنات. وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط". ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة، أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان شيء يمكن تسميته مدنية في إنجلترة الأنجلوسكسون.

ومع ذلك فكلما اقتربت روايته مما مر به في الهند من خبرات، تغلبت نزعة الحاج النقي العالم في شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحمًا بأقاصيص فظيعة تروي معجزات لا سبيل إلى تصديقها. ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إليها، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم. وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم، من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجماهير، لهو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء. ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فيها؛ فأما آنذاك فقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تمامًا. ويقدم إلينا يوآن تشوانج بيانًا ممتعًا عن جامعة بوذية عظيمة في نالاندا، كشفت أخيرًا خرائبها ورفعت عنها الأتربة. ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين في زمان يرجع في قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية في أثينا. كذلك زار كهوف أجانتا التي مر الحديث عنها. وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا، ووجد نجم البراهمة في تألف وصعود لا ريب فيه. وهو يذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التي ذكرنا[2]. بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعًا ما. فهو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض. ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة "المولودة مرتين" الأعلى منهم.

---

(1) كمالات البارامينا: هي فضائل الكمال المطلق مثل، العفاف والإحسان والصبر والحكمة، التي ينبغي أن يمارسها كل من تتوق نفسه إلى سلوك سبيل النبوة البوذية. (المترجم)

(2) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣. (المترجم).

ولكن كما سبق أن ألمحنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية يغمره ما كدسه فيه من الأساطير والمختلقات الورعة. فمن أجل هذه دون غيرها جاء، وبهذه كان يفرح ويغتبط. فأما ما عدا ذلك فواجب قد ألقي على عاتقه رغمًا عنه كما سنرى. فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا، بل حتى في زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka)، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهامًا نبيلاً، تتبدى لنا آنذاك تائهة في بيداء من الهراء غير المعقول، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيليات عيد الميلاد الإيمائية (Pantomime)، وإلى إناث يحملن حملا إعجازيًا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعامًا لنمرات جائعات، ومعابد مشيدة على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء. ولسنا بقادرين أن ندلي بمثل هاته الأقاصيص هنا، فإن كان القارئ ميالاً إلى مثل هذا النوع من الأشياء، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية، حيث يجد طوفاناً من مثل هذا الهذيان. وذلك بينما البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز بالتفوق من جديد في كل مكان في منافستها لهذه البوذية التي تقوضت فكريًا واختنقت تحت زخارفها المذهبة، كما لحظ ذلك يوآن تشوانج آسفاً.

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضمحلال فكري كبير في الهند، يجوز لنا أن نلحظ أيضًا تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة في بيانات يوآن تشوانج. فإن شطرًا كبيرًا من البلاد لم يبرح يكابد من غارات الإفثاليين وسلبهم والفوضى المترتبة عليها. فإنا نجد مثل هذه الفقرة مرارًا وتكرارًا: "لقد ذهب شمالاً بشرق مخترقاً غابة عظيمة، وكان الطريق ممرًا ضيقاً خطرًا يكثر به الجاموس البري والفيلة البرية، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو (كوزينا جارا). وكانت أسوار المدينة حطامًا خربة، بينما البلدان والقرى قد هجرها أهلوها. وكانت أسس مباني المدينة القديمة المبنية من الطوب، (أعني المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (لي [1] Li). فأما عدد السكان فقد تضاءل إلى أقصى حد، حتى أصبح داخل المدينة خرابًا موحشاً". ومع ذلك، فلم يكن هذا الخراب عامًا بأية حال. إذ لا يقل عن ذلك كثيرًا ما يذكره الكاتب من المدن المزدحمة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة.

ويتحدث كتاب "الحياة" عما لقيه الكاتب من مشاق في طريق عودته؛ إذ وقع في أيدي اللصوص؛ وغرق الفيل الضخم الذي كان يحمل غالب متاعه؛ ولقي صعوبة كبيرة في الحصول على دابة جديدة. ولكن لا سبيل هنا إلى معالجة هذه المغامرات.

([1]) لي Li: هو ميل صيني يساوي على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليزي. (المترجم).

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصرًا مبينًا. فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه. وأعلنت بالبلاد عطلة عامة؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سرورًا بأنغام الموسيقى. وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخم حافل. واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصانًا؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذيـ ـة المكتوبـ ـة بالسنسـ كريتية، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة، وما بين ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندوق؛ وكانت معه صور مقدسـ ـة، وما لا يقل عن مائة وخمسين أثرًا حقيقيًا مشهودًا بصحة نسبته إلى بوذا. وقُدِّم يوآن تشـ وانج للإمبراطـ ـور، فعامله معاملة صديق شخصي، وأخذه إلى القصر يسأله يومًا بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغريبة التي قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل. ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند، كان الحاج ميالاً ألا يتكلم إلا عـ ـن البوذية.

ويحتوي ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتين تلقيان الضياء على النشاط الفكري لهذا العاهل العظيم تاي تُسنج، الذي كان فيما يرجح مسلمًا بقدر ما كان مسيحيًا أو بوذيًا [1]. والعيب في كل المتخصصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شئون دياناتهم الخاصة، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى؛ ولعل مزية – أو عيب – أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاي تسنج أو قسطنطين الكبير، أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبيًا. وواضح أن الخير الجوهري الكمين في هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاي تسنج خيرًا جوهريًا واحدًا لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى. لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية، وأن يلتحق بوزارة الخارجية، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحـ ـدة. وعنـ ـد ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبـ ـي النفـ ـيس الذي نكتنزه معتزين به. وأخيرا اقترح تاي تسنج على البوذي المتشبع تمامًا بمبدئـ ـه أن يسـ ـتخدم معرفتـ ـه بالسنسكريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزي (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود.

ولا مراء أن الإمبراطور رأى في ذلك ردا عادلاً للجميل وخدمة نافعة للخيـ ـر الجـ ـوهري الكـ ـامن وراء الديانات جميعًا. ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزي لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيرًا منه. وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب. وبنفس هذا الروح بـ ـذل قسـ ـطنطين الكبيـ ـر قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما وديًا. وطبيعي جدًا أن مقترحه هذا قد رفضه يـ ـوآن تشوانج. فإنه اعتكف في أحد الأديرة، وقضى بقية حياته مترجمًا بأسلوب صيني رشيق كل ما وسعه جهـ ـده من الأدب البوذي الذي أحضره معه [2].

---

[1] يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاي تسنج لاستقباله يوآن تشوانج (٦٤٥). بيد أن مؤرخي المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل ما لقيه المبعوثون النساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء اسـ ـتنتاج المؤلـ ـف بمـ ـا اجتمع في عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة. (المترجم).

[2] عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرهما من أقطار الغرب والشرق، انظر للمتـ ـرجم: "التـ ـاريخ وكيـ ـف يفسرونه" : تأليف البان ورجري [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بماسبيرو]. (المترجم).

الفصل الثلاثون

محمد (ﷺ) والإسلام

١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة.

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا.

٤- تعاليم الإسلام.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر.

٦- أيام عظمة بني أمية.

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين.

٨- الثقافة العربية.

٩- الفن العربي.

١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أَمَّ مجالس بلاط هرقل وقباذ وتاي تُسنج رسل من العرب، أرسلهم شخص معين هو محمد، "رسول الله"، المقيم في بلدة "المدينة" التجارية الصغيرة ببلاد العرب. وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي الذي نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارها.

فمنذ أزمان سحيقة كانت بلاد العرب، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد في الجنوب الغربي، أرض بدو رحّل، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية. فمن بلاد العرب وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق. وقد لاحظنا في هذا الكتاب كيف عمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت عليهم، وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشور، وكيف غزا الهكسوس مصر، وكيف استقر الآراميون تمامًا في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم، وكيف فتح العبرانيون "أرض الميعاد" فتحًا جزئيًا. وقد انتقل الكلدانيون في تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية، واستقروا في الأراضي الجنوبية السومرية القديمة. وكان كل غزو يُدخل في التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك. بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية في المستقبل بالرجال.

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيمًا في عهد الحصان والحديد: إمبراطوريات الطرق والكتابة، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة، كما يصورها خزانًا للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضى الجزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها. أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجي ضعيف مؤقت. وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعي على التعاقب شيئاً من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب، وتعلن عليها ضربًا لا أساس له من الحماية. وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى "بلاد العرب"، وكانت تتضمن إقليم حوران الذي كان خصبًا آنذاك وتمتد حتى البتراء (Petra). وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة كذلك كان حال أذينة (أوديناثوس البالميري) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة. وكانت بعلبك كذلك مدينة صحراوية أخرى بلغت رفعة مؤقتة ولا تزال خرائبها تدهش السائح.

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens): أعني المشارقة.

وفي أيام كسرى الثاني الملقب بأبرويز، ادعت فارس نوعًا معيناً من السيادة على بلاد العرب؛ وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب. وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها، يعتنقون الدين اليهودي، وهو أمر خليق بالملاحظة.

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادي أية أمارات على وجود أية قوة غير مألوف ة أو طاق ة خطرة في الصحراوات العربية. إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيـ ال طويل ة. فحيثم ا وجدت رقعة خصبة، أعني حيثما كانت هناك عين أو بئر، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد في مـ دن مسوّرة، محاذَرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم في الصحراء. وكان المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية، وكانت في طليعتها المدين ة (:يث رب) ومكة. وفي بداية القرن السابع كانت يثرب بلدًا يحتوي على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها، فيما يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفًا. وكانت يثرب بلدًا أفضل نسبيًا من حيث المياه، بهـ ا أحراش نخيل كثيرة؛ وكان سكانها من اليمانية، أي من أهالي الأرض الخصيبة في الجنوب، أما مكة فمدين ة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذي طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار.

ولم تكن مكة مجرد مركز تجاري ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها، بل كانت بمثابة حج للناس. فكان بـ ين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز في مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى؛ وكانت هناك أشهر حُرُم (هدنة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكـ رامهم. وقـ د نمـ ا بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمبي [1] في هذه الاجتماعات. إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجالي الروعة والجمال، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغاني الغزل. وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسـ هم "أمير الشعراء" للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز؛ وكانت الأغاني الفائزة بالجوائز تغنى في كل بلاد العرب.

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آنذاك. وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء، حجـ ر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية. وكان هذا الحجر النيزكي يعد ربًا، وفي حمايته كل الآلهة القبلية الصـ غيرة ببلاد العرب. وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سـ دنة لـ ه. فيأتيهم في الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس دينية معيذ ة، فينحنـ ون ويقبلون الحجر، ويشتغلون كذلك بالتجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية. وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار.

(1) نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التي كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد ما يذكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا. بيد أن وثنية هؤلاء العرب الأشد بدائية أخذت تتعرض للهجمات من جهات عدة. فأدخل العرب في دين اليهودية أفواجًا أثناء عهد المكابيين [1] والهيروديين ببلاد اليهودية (Judea)؛ وكانت اليمن، كما سبق أن ذكرنا، قد وقعت على التعاقب في حكم اليهود (أعني العرب المعتنقين لليهودية)، فالمسيحيين فالزرادشتيين. وواضح أنه لا مفر من حدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج في مكة وما شابهها من مراكز. وطبيعي جدًا أن تكون مكة هي معقل نحلة الوثنية القديمة التي وهبتها أهميتها ورخائها، فأما المدينة فهي من الناحية الأخرى ذات ميول يهودية، وتقع بالقرب منها مستقرات لليهود. فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينة في حالة منافسة وتنازع.

---

(1) المكابيون: أسرة يهودية ظهرت في القرنين ٢، ١ ق.م. وأسرة هيرود، حكمت في فلسطين في زمن المسيح عليه السلام. (المترجم)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م. ولد في فقر بالغ، وكان ضئيل الحظ من العلم، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقًا [١]. وظل بضع سنوات يشتغل بالرعي؛ ثم دخل بعدئذ في خدمة سيدة معينة اسمها خديجة، وهي أرملة تاجر موسر. ولعله كان يُعنى [٢] بإبلها أو يساعد في أعمالها التجارية. ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن [٣] وإلى سوريا. والظاهر أنه لم يكن تاجرًا عظيم النفع لها في تجارتها، ولكنه أوتي من الحظ نصيبًا موفورًا، فأعجبت به السيدة فتزوجته، فتضايقت [٤] من ذلك عائلتها تضايقًا كبيرًا. ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين. وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين. والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج. وولد له أطفال عديدون، كان اسم أحدهم عبد مناف [٥] – أي خادم الرب المكي "مناف"، وهذا يدل على أن محمدًا لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية [٦].

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش في مكة عيشًا عاديًا كبعل لزوجة ثرية وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكًا في بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعي. فلو أن إنسانًا زار مكة سنة ٦٠٠ م لرأى فيه فيما يرجح شخصًا أشبه بالمترفين، شخصًا حييًا وسيم الطلعة، متنقلاً بين المجالس، منصتًا للحديث، وشاعرًا غير مجيد [٧]، ورجلاً ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم.

---

(١) علام الشك وأميته (عليه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن في مواضع متعددة منه. (المترجم).

(٢) المجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم. (المترجم)

(٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام سافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأي غرض آخر. والثابت المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين، مرة وهو حدث في حوالي الثانية عشرة من عمره في صحبة عمه أبي طالب وأخرى حينما كان في حوالي الخامسة والعشرين نائبًا عن السيدة خديجة (رضي الله عنها) في تجارتها. (المترجم).

(٤) قال الدكتور هيكل في كتابه "حياة محمد" ص ٨٤ ما نصه "فلم تبطئ خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج – وزوجها عمها عمر بن أشد إذ كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار – مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضرًا ولم يكن راضيًا عن هذا الزواج". (المترجم)

(٥) الثابت قطعًا أنه لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الاسم. والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه من كل أصنام العرب. ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث للنبي عليه الصلاة والسلام اسمًا لأحد أبنائه. (المترجم).

(٦) وهل قال أحد بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عندما جاءه الروح الأمين وهو يتحدث في غار حراء؟ وهل لا يعتبر نفور محمد ﷺ الطبيعي من الأصنام وكل ما يمت إليها بصلة من طقوس وقرابين وتعظيم إلخ من أمارات السمو الروحي الذي عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين، والذي حفزه إلى التفكير والتأمل والتحنث بحثًا عن الحق الذي هداه في النهاية إلى نهجه القويم حتى هبط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم. (المترجم)

(٧) معاذ الله أن يتصف النبي بقوله الشعر؛ والله نزهه عن الشعر في كتابه الكريم ولم ترو كتب السيرة الشريفة قط أنه عليه السلام قال شعرًا في صباه. (المترجم).

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على سبيل الظن والتخمين. وقد اعتقد بعض متوق دي الخيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية. "ففي هدأة الصحراء ليلاً، وفي قيظ ظهيرة الصحراء نهارًا، عزف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعًا وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش، ذلك أن الصحراء لله، وفي الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده" [١]. وربما كان الحال كذلك حقًا، ولكن لم يقم أي دليل [٢] على حدوث مثل تلك الـ رحلات الصحراوية. ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكيرًا عميقًا فيما حوله من أشياء. ويحتمل أنه رأى كنـ ائس مسيحية في سوريا [٣]؛ ويكاد يكون محققًا أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديـ انتهم، وأنـ ه اسـ تمع إلـ ى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب. ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعًا. وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق، دون أن يدرك ما حدث له[٤].

أخيرًا لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمنًا أطول. فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين. وجاء بآيات معينة، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء. وكانت تحتوي على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولـ ـة عن البر والتقوى. كذلك أصر على وجود حياة في الدار الآخرة، وعذاب جهنم للمستهين والشـ رير، وجعـ ل الفردوس نُزُلا للمؤمنين بالإله الواحد. وفي ما عدا دعواه أنه نبي جديد، لا يبدو أن قد كان في هذه المبـ ادئ شيء بارز الجدّة في ذلك الزمان، بيد أن هذه التعاليم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتنـ ـة، وهـ ي التي كانت تعتمد في بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة، والتي كانت لذلك مستمسكة بالأصـ نام يـ وم كان سائر العالم قد أخذ ينبذها. وقد قال محمد ﷺ – كما قال ماني – بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسـ ى وإبراهيم كانوا معلمين قدسيين، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها. وهو لم يذكر البوذية بأي حال، وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا. فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة في الركـ ود والتـ أخر مـ ن الناحيـ ـة اللاهوتية.

---

(١) السير مارك سايكس.

(٢) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء؟ (المترجم).

(٣) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ إنه لم يتعد في زيارتيه للشام مدينة بصرى محـ ط قوافل المكيين وهي في أقصى الجنوب الشرقي لفلسطين الحالية. (المترجم).

(٤) لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب فـ ي جـ اهليتهم الوثنية كانوا يعرفون الله الخالق وإنما كانوا يتخذون من الأوثان والأصنام في بداية أمرهم بها شفعاء في تقـ ربهم إلـ ى الله زلفى. فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون الله مع ذكرهم لاسمه ومعرفتهم له وذلك ظاهر في أشعارهم وخطبهم في الجاهلية. (المترجم)

وظلت الديانة الجديدة بضع سنين وهي سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء، هم: خديجة زوجة النبي، وعلي ابنه المتبنى، وزيد وهو عبد، وأبو بكر وهو صديق معجب به. وظلت بضع سنين نحلة مغمورة في بيوت قليلة بمكة، كانت مجرد عبسة وزمجرة خافتة في وجه عبادة الأوثان، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعيروها أدنى اهتمام. ثم أخذت تقوى ويصلب عودها. وأخذ محمد يجهر بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم. ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم. فبدا للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية في مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه. وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الجديدة والقضاء عليها.

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن؛ ولا يجوز سفك أي دم داخل أسوارها؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الجديد تنغيصًا شديدًا إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة. فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية. على أن النبي نفسه لم يمس بسوء – لما له من عزوة قوية تحميه، بينما لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموي. وليس في إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح في هذا المقام. بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد، يقول عنها السير مارك سايكس "إنها تثبت أنه كان عربيًا صميمًا" فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله، عاد فداخله التردد. فجاء ساحة الكعبة وأعلن [1] أن أرباب مكة ورباتها، قد تكون قبل كل شيء حقيقية، وقد تكون ضربًا من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة.

([1]) هذه قرية الغرانيق، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى" أو "وإن شفاعتهن لترتجى" إلخ لمما يجعل تصديق الرواية مستحيلاً ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش في بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار في نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾ ، إلخ؛ فإذا وضعنا ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى... (ثم أردفناها بقوله تعالى) ....، ﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا**﴾ إلخ لكان المدح والذم لشيء واحد متتابعين، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذي لم يرو عنه أحد أقوالاً أو يسند إليه أفعالاً متناقضة متضاربة طوال حياته.

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئًا عن هذه القصة يشير إلى شيء هام وهو أنه يحتمل كثيرًا أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية في تاريخ متأخر حشرت حشرًا في التفسير وغيره أنها تعليل لنزول آيات أخرى من غير تمحيص أو تحليل. (المترجم).

قوبل تراجعه بالحمية والحماسة من قريش، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا!...]، وذلك يدل على أن الخوف من الله – كان لا جرم – يملأ جوانب قلبه، فما بدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته [١]. ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا!...]. فقال إن الشيطان تلبس لسانه [٢]، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجدين. وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة، متأججًا على صورة أشد وأعنف، دون أي أمل آخر في الصلح.

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا. فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات من الرسالة رجلاً قد بلغ الخمسين من العمر، وأخفق إخفاقًا تامًا في مكة. وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضًا قبل ذلك بقليل. فخرج يلتمس الجوار في بلدة الطائف القريبة، ولكن للطائف ردته بالأحجار والسباب. حتى إذا أظلمت الدنيا في وجهه كأحلك ما تكون، انفتحت أمامه أبواب الحظ. إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب في مكان لم يكن له بحسبان. ذلك بأن يثرب (المدينة) كانت تمزقها الانقسامات الداخلية شر ممزق، وكان كثير من أهلها، اجتذبتهم تعاليم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة. ولعل اليهود الكثيري العدد في المدينة زعزعوا في قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة. فأرسلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه [٣].

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين، ويرسل الصحابة ليعلموا الناس في المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان. ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكي يكونوا في انتظاره عند وصوله؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين في مدينة غريبة. واستمر خروج المؤمنين هذا، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر [٤].

وبالرغم من أنه كان مفروضًا أن مكة حرم آمن، فإنه أوشك أن يقتل هناك. وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بما كان يجري في المدينة، فأدركوا ما يحدق بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبي الخارج عليهم أن يسيطر على بلد في طريق قوافلهم الرئيسي إلى سوريا. فلا بد إذن للعرف أن ينثني أمام الضرورة القاهرة؛ فأجمعوا أمرهم على أن محمدًا (ﷺ) يجب أن يموت، سواء أترتب على ذلك ثأر أم لم يترتب. فدبروا أن يقتلوه في فراشه، ولكي يشتركوا جميعًا في إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشيرة في البلدة ما خلا بني هاشم عشيرة محمد. غير أن محمدًا كان دبر هجرته من قبل؛ فلما اقتحموا عليه حجرته في سدفة الليل، وجدوا عليًا ابنه المتبنى، نائمًا أو متناومًا في فراشه.

---

(١) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والواعي لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أخذ الله على نفسه حفظه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ من كل دعاية وكل سوء. (المترجم).

(٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبي. (المترجم).

(٣) ليس في شروط بيعة العقبة ما يؤيد الزعم بدعوته للحكم. (المترجم).

(٤) الصحيح أنه بقي بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات، ما لبثوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة. (المترجم)

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة. وأخذ المدربون من قصّاصي الأثر في الصحراء يقصون مواطئ الجمال في شمال مكة؛ على أن محمدًا وأبا بكر انطلقا جنوبًا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن مخبأة [1]؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة. حيث وصل النبي ومعه زميله الصدّيق؛ واستقبلا بحماسة كبيرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م. وكان في ذلك خاتمة ابتلائه وبداية صولته وسلطانه.

([1]) ما للمؤلف يتغاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشذوا في تفاصيلها؟ أين نشاط المكيين في تعقب الفارين، وأين قصة الغار وبقائهما به أيامًا ثلاثة، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من الله الذي يتحدث عنه القرآن ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾ وأين حديث سراقة الذي جد في طلبه هو وأبي بكر وما كان من غوص قوائم فرسه في الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستيه المرموقتين لما وضع لرأسيهما من مكافأة مجزية، على أن يتكفل برد الطلب؟ ولكن ليس ينتظر منه – وهو غير المؤمن – أن يورد ما يثبت لمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة؟ (المترجم).

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا[1]

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة، أي حتى أتم الحادية والخمسين من عمره، موضوع الحدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهل الرأي. فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ. وإنا لنستبين فيه رجلاً أوتي قوة تصورية هائلة، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب، ولها أغلب مزايا البدوي ونقائصه[2].

وكان ابتداء حكمه "بدويًا محضًا". فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرًّا – حسب تفسير محمد – بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل [3] مكة، دامت أكثر من عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أي توفيق. ثم حدث حادث جلل، هو نقض الهدنة العتيقة المسنونة، هدنة الحلف العربي في شهر رجب الحرام. فإن جماعة من المسلمين في موسم السلم الأصيل هذا، هاجموا غدرًا قافلة صغيرة وقتلوا رجلاً. وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذي أصابوه، وقد أتوه بأمر النبي[4].

ثم نشبت فور ذلك معركة. فإن قوة مكونة من سبعمائة رجل خرجت من مكة لتستقبل في الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلاثمائة. وحدث بين الطرفين قتال، هو معركة بدر التي انهزم فيها المكيون وخسروا خمسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى. وعاد محمد إلى المدينة منتصرًا وقد ألهمه الله هذا النجاح، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود في المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود.

---

(1) عن غزوات الرسول وسراياه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد وكلمة Fighting التي استعملها المؤلف لا تعني بالضرورة دائمًا كلمة "مقاتل" وقد اخترنا منافحًا لأنه أكثر الألفاظ انطباقاً على حالة النبي ﷺ وأصحابه وأنصاره في المدينة، إذ كانوا يذودون عن حقوقهم المسلوبة التي أنكرها عليهم المكيون، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واستباحوا دماءهم وما كان لهم من مال وعتاد، وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجرون ليعبئوا بحطام الدنيا ومتاعها، لكنهم والأنصار معهم في صعيد واحد، ما كانوا لتهدأ لهم ثائرة حتى ينتزعوا من المكيين بالسلم أو بالحرب، بالمفاوضة والإقناع أو بالتهديد والبطش، حقوقهم المقررة كسائر الناس في حرية الرأي وحرية العقيدة وحرية العودة إلى الوطن. (المترجم).

(2) حاشا أن تكون للنبي نقائص. فلئن كان البدوي إنسانًا عاديًا، فإن النبي هو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. (المترجم).

(3) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها "غارات، وهي هي صفة المصادرة بعينها التي أقرها "القانون الدولي" وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية – عبقرية محمد للأستاذ العقاد ص ٦٤. (المترجم).

(4) ينقل المؤلف ها هنا بعض أقاويل المستشرقين في سرية عبد الله بن جحش التي قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه "فهي سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه... وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم، فأباه عليه السلام وقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبي وساءت لقياهم بين أهل المدينة". ص ٧٨ عبقرية محمد. وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم. وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم للمسلمين بالمدينة بحقوقهم التي ذكرناها آنفًا. (المترجم).

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر، وأنزلت بأتباع النبي في معركة "أحد" بالقرب من المدينة، هزيمة غير حاسمة. وقد وقع النبي وكاد يقتل، وهرب كثيرون من أتباعه. ومع ذلك فإن المكيين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة [١].

ثم تركزت كل طاقات النبي ردحًا من الزمان في استثارة أتباعه الذين كانت عزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم المحنة التي كانت تمر بها المشاعر في تلك الأيام. يقول السير مارك سايكس: "وسور القرآن التي ترجع إلى هذه الفترة، تبز نظيراتها كلها تقريبًا في جلالها وروعتها ويقينها الرائع"، وإني لأقدم للقارئ هنا مثالاً يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عن الترجمة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد علي [٢] : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.** ﴾ (آل عمران).

---

(١) ما الذي يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضي عليه قضاء مبرمًا لا تقوم له بعده قائمة؟ ألم يكن المسلمون شوكة في ظهر المكيين وهذا النصر فرصة ذهبية للخلاص منهم نهائيًا؟ لا نحسب القارئ، وقد أغضى المؤلف عن هذه المسائل، إلا مدركًا لما بين السطور من أن المكيين قد تكلفوا في هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب. وجدير بنا أن نقرر هنا أن المعركة في بدايتها وعندما حمي وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توحي بأن المسلمين لا بد منتصرون، لولا أن الرماة بالنبل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على ربوة خلف المسلمين لحماية ظهورهم وأوصاهم ألا يغادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون قتلاً، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حينما أبصروا المكيين يتزحزحون إلى الوراء تحت ضغط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أولى بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوانهم، وعندها فطن خالد بن الوليد – وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة – إلى أهمية الربوة فاستدار بفرسانه وفاجأ المسلمين برجاله من الخلف، وكذلك وقع المسلمون بين نارين، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضعفوا بل قاتلوا قتالاً مجيدًا وأنزلوا بأعدائهم خسارة أعجزتهم كلية عن السير في الشوط إلى نهايته. وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا، ولم يشف لهم غلة، اللهم إلا قتل نفر من المسلمين وتروهم في بدر في كثير من أقيالهم. (المترجم)

(٢) وهي التي أصدرتها المجلة الإسلامية.

واستمرت المناجزات سجالاً غير فاصلة بضع سنين، وأخيرًا بذلت مكة آخر جهودها لكي تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية. فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل – وهي قوة هائلة بالنسبة للزمان والإقليم. وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تمامًا من المشاة والفرسان والجمّالة، ولم تكن مستعدة لأي شيء عدا مناوشات الصحراء العادية. وكان كل ما لديها من سلاح هو القسي والحراب والسيوف. فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت غمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ المدينة وبيوتها، فبدلاً من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظرًا، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيّرتها: هي خندق وسور. ذلك أن محمدًا احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسي أسلم [1]!.

فبدا ذلك الخندق لعين الخليط البدوي أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشريف والروح الرياضية القويمة. فداروا حول المكان راكبين. وأخذوا يتصايحون معبرين للمحصورين عن رأيهم في الأمر كله. وأطلقوا بضع سهام، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة. غير أنهم لم يصلوا في شأنها إلى قرار حاسم. فإن محمدًا لا يريد أن يبرز إليهم؛ وأخذت الأمطار تهطل، وابتلّت خيام الأحلاف وأصبح الطهي عسيرًا، ودب دبيب الخلاف بينهم في الرأي وأخذ صبرهم ينفد، ثم ذوى ذلك الحشد العرمرم مرة ثانية متفرقًا شراذم وثللا، دون أن يتلاحم مع المسلمين في معركة (٦٢٧). فتفرقت الجماعات شمالاً وشرقًا وغربًا وجنوبًا، وأصبحت ظللا من القتام وزال كل خطر لها. وكان بالقرب من المدينة قلعة لليهود، كان محمد مغضبًا من قبل عليهم، لما أبدوه من عدم احترام لعقيدته [2]. وكانوا أظهروا ميلاً إلى الانضمام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون في هذا الصراع النهائي، هنالك أطبق محمد عليهم، وذبح كل الرجال وكانوا تسعمائة، وسبى النساء والأطفال. ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل، من بين المساومين على مشتري هؤلاء السبايا والعبيد. ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن انبعثت مكة بتحدٍّ فعَّال لمحمد، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحدًا بعد الآخر.

---

(1) عن وصف إعداد ذلك الخندق وكيف شارك الرسول عليه السلام في حفره بنفسه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ – ٤٤٥. (المترجم)

(2) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة عهد نقضه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ تراسلوا مع قريش وأخذوا يلقون الرعب في المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على جيوش المسلمين من الخلف. حياة محمد ص ٣٠١ طبعة أولى. سيرة ابن هشام جـ ٣. ص ٢٢٩ – ٢٧٤، وفيها ذكر للعهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريظة ونقضهم لعهدهم الذي عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الأحزاب وتهديدهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة في تحصيناتهم للأحزاب ليثبوا منها على المسلمين وكل ذلك خيانة عظمى، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يذكرهم بالعهد ويطلب إليهم التقيد به فقد أجابوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علنا وإصرارهم على مؤازرة الأحزاب أحلافهم الجدد ضد المسلمين، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقب عليها بمثلها؟. (المترجم).

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التي انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبي إلى مكة. وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُصلّون، بدل أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين، وأن تكون مكة مركز الحج للدين الجديد. وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلدهم، فالظاهر أنهم لم يكن يعنيهم كثيرًا، هل يجتمع الناس باسم إله واحد أم آلهة كثيرة. وأخذ اليأس من تحويل أي عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبيبًا متزايدًا، فأنشأ يكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربًا واحدًا. "فالله" قد أخذ يصبح شيئًا ربه الخاص به، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيدًا بحجر الكعبة النيزكي، كما أخذ يبعد قليلاً؟ عن أن يكون ربًا وأبًا للبشرية جمعاء [1]. وكان النبي أظهر بالفعل ميلاً إلى أن يعقد مع مكة صفقة، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر. وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل [2]. ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين. وصفوة القول إن محمدًا دخل مكة في ٦٢٩ سيدًا مطاعًا وحُطِّم صنم مناف – وهو الرب الذي سمي ابنه يومًا ما باسمه – فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة [3].

---

(1) إن هذا الذي نقله المؤلف هو رأي المستشرقين، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحد قط عن نصوص التنزيل التي تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعًا وأن الله رب العالمين كافة. وكيف يسوغ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يختص نفسه بالله ربًا من دون الناس، وهو الذي يخفض جناحه للمسيحيين واليهود على السواء. ويستثنيهم من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أي (التنزيل من عند الله). وما ذلك إلا لأنهم يقرون لله بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء. وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾ فذلك هو ما يتفق تمامًا مع وحدانية الله المجردة التي ظل يدعو إليها طوال رسالته والتي خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود في مجتمع المدينة في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾. (المترجم).

(2) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ إن ذلك يبين بجلاء ما كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فتثوب مكة إلى رشدها وتخلي بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأي والعبادة دون عنت ولا إعنات. فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعماها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت في طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها ذلك أهدرت دمه، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة، وفيها حاول بكل ما أوتي من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأنهم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة الله وحده على طريقتهم المثلى، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى كسرت شوكة مكة وتقوضت دعائم شركها وبان ضعفها فخفض لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التي انقبضت عنها من قبل يدها حمية واستكبارًا. ولعل القارئ إذا رجع إلى صلح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبي عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا. (المترجم).

(3) ليس بين أبناء النبي كما أسلفنا من يسمي بعبد مناف قط ولا ندري من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة. (راجع مقدمة أسد الغابة في أخبار الصحابة وسيرة النبي وذكر أولاده وأزواجه). (المترجم).

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد، وحدثت معارك وخدع ومذابح؛ بيد أن الغلبة كانت له على الجملة، حتى دانت له في النهاية بلاد العرب قاطبة؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب في ٦٣٢، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو في الثانية والستين.

وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي ختمت بها حياته بعد الهجرة غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أي شخص يجمع شتات الشعوب في كنف حكم ملكي موحد. والفارق الوحيد هو استعماله الدين الذي جاء به، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض. كان يستخدم الدبلوماسية ويداري تارة ويقسو ويشتد أخرى، أو يتساهل ويلين، حسبما تقتضي المناسبة والظروف [1]، كأي ملك [2] عربي قد يوجد في مكانه؛ وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدرًا طفيفًا من الروحانية [3]. كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف، خير أنواع الحياة ولا أسعدها. وهو يبدو حتى

---

(1) ما كانت المداراة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات الله عليه، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فصل تال حين يذكر قدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم، وهذا لعمري أمر لا يتأتى إلا لمن كان حقًا على خلق عظيم أبعد ما يكون من المداراة والقسوة، ولسنا نجد أبلغ في الرد على هذا القول من قول العلي الكريم في مخاطبة نبيه الأمين:

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾. (المترجم).

(2) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابي الذي قال للنبي "أنت سيدنا" فأجابه عليه السلام "السيد الله تبارك وتعالى". (المترجم)

(3) هذه تهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبًا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله، ويتزود به. وأية روحانية أكبر من أخذ الناس جميعهم، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله ونعني بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله، وتطهير النفس من أدران الفساد المادي وحملهم حملاً على نبذ الرذائل والتحلي بالفضائل وبخاصة الصدق والحلم والعلم والتواضع والرحمة والإخاء في الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ونبذ المادة وما تغري به، إلا بما يقوم بالأود ويقضي ضرورات الحياة، والإيمان بالله إيمانًا صادقًا صادرًا من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه في السر والعلن ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾، ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا ينثني لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولاً وعملاً فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين، المؤثر على نفسه، الكاظم الغيظ، الواثق بربه، العامل بوحيه وأوامره. وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لخصها الله تعالى في قوله ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ . ومن ثم حضه تعالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه الرسول صلوات الله عليه وما كان عليه أصحابه الأقمار النيرة من قوة روحية لا تغالب، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذي لا نجد له في الإنجيل والتوراة مؤهلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثرًا مما جاء به عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله وأصحابه ومن دخل في دينه دون تفريق أو تمييز. (المترجم).

وفاة خديجة، يوم كان في الخمسين، الزوج المخلص لامرأة واحدة – ولكنه عاد عند ذلك – كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلو بهم السن [1] – فأظهر بالنساء اهتمامًا قويًا.

فتزوج زوجتين بعد وفاة خديجة، كانت إحداهما الصغيرة عائشة، التي أصبحت وظلت شريكته الأثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه. ثم أضاف إلى أهل بيته عددًا من نساء أخريات، ما بين زوجات وإماء. وأدى هذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع، فإن هذه التعقيدات لا تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش.

وقد كان هناك مثلاً قصة حول السيدة عائشة؛ فإنها خُلِّفت في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينما كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات؛ وذا صار لزامًا أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك[2]. ثم نزلت الآيات أيضًا فيما غلب على بيت النساء هذا من تلهف على "الحياة الدنيا وزينتها" وعلى "التمتع بالرفاهية". ثم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبي زوج في البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد، ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا**﴾ أخذها النبي وتزوجها – ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقي. ﴿**...زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**﴾ ومع ذلك فمن المحقق أن آية بسيطة في القرآن [3] كانت تُغني عن هذه المظاهرة العملية الشديدة. وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد في الحريم بسبب

---

[1] "ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الشهوات أن يجمع النبي إليه تسعًا من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن إليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة. لكنه لم يتزوج بكرًا قط غير عائشة رضي الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودًا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة منهن – رضي الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة" (عبقرية محمد للعقاد، ص ٢٠٠ – ٢٠٢).

[2] يقول السير وليم موير تعليقًا على هذا الحادث ما ترجمته: "إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها". "حياة محمد". على أننا لا نجد ردًا أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة النور) (المترجم).

[3] لم يكن الرسول كما تصور المبشرون "رجلاً يأخذ بعقله الهوى... فلم يعرف عنه. في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب. (حياة محمد) للدكتور هيكل.

المحبة الزائدة التي أظهرها النبي لجارية مصرية، ولدت له غلامًا [1] – وهو غلام كان يحنو عليه حنوًا شديدًا، ذلك أن لم يعش له واحد من أبناء خديجة. وكل هذه المتاعب المنزلية تمتزج أعظم امتزاج بتصورنا لشخصية النبي. وكانت – صفية – إحدى زوجاته يهودية [2]، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل. إذ استعرض السبايا في آخر النهار، فراقت نظره وحملت إلى خيمته.

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد.

هذا وليس عدلاً أن نتخذ الغلو لنا رائدًا، فمن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة طوال حياتها – على أنها ربما كانت زوجة محبة. وأبو بكر شاهد أفضل، وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان أبو بكر يؤمن بالنبي، ومن العسير على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر. وكذلك علي، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه. لم يكن محمد دجالاً بأية حال، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله [3].

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه: وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدًا بن حارثة بأمره وعلى غير رضا منها، لأنها أنفت – وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله – أن يتزوجها غلام عتيق. هذه أيضًا لم يكن "للذات الحس" المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قول زيد وهي تأباه. فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدًا وشدد عليها في قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وغلاظها بالقول له كان زواج النبي بها "حلا لمشكلة" بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق. (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد.

([1]) انظر للرد على ذلك في حياة محمد ص ٤١٦، ٤١٧ للدكتور محمد حسين هيكل.

([2]) "وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارت الزواج منه عليه السلام" عبقرية محمد ص ٢٠٤. فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفًا يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحمة بالضعفاء. (المترجم)

([3]) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بما يعرفون عن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك مما جمعه الله جلت صفاته في نعته نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكمله لرأيت أن المؤلف قد تنكب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبي عليه الصلاة والسلام صفة واحدة مما تفضل بها المؤلف عليه، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبي صلوات الله عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزمًا وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التي عددها المؤلف ولا يمكن لعقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل "**أدبني ربي فأحسن تأديبي**". فضلاً عن أن أحدًا من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام ند يومًا عما أدبه به ربه، ولا أن أحدًا من صحابته أخذ عليه يومًا شيئًا من هذا الذي ينتقده المؤلف، فكأن كل أعماله صلوات الله عليه كانت مما يقبله الذوق السليم في عصره. (المترجم).

ولئن كانت رغبته في صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفي الطفل، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان.

وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال "**إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه**".

٤- تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية [١] شيء، وصفة الإسلام – تلك الديانة التي أسس – شيء آخر. لم يناصب محمد يسوعًا أو ماني أي عداء. ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشتية المنحلة، وهي الأمور التي يُعنى بها المؤرخ أعظم ما يُعنى، وسواء أكان الأمر بفضل النبي (صلى الله عليه وسلم)، أم بسبب صدف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها في الصحراء التي منها نشأ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة.

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام في آخر السنة العاشرة للهجرة. وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة، ينقلها إلينا التواتر كما يلي. وبدهي أن هناك خلافًا حول الألفاظ.. ولكن ليس ثمة نزاع في أن عالم الإسلام، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمائة مليون نفس، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير. وسيلحظ القارئ أن أول فقرة في الخطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء. وتجعل الفقرة الأخيرة منها، الزنجي المؤمن عَدْلا للخليفة. وربما لم تكن تلك الكلمة رفيعةً [٢] رفعة بعض أقوال يسوع الناصري، بيد أنها أسست في العالم تقاليد عظيمة، للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ. وقد أنشأت مجتمعًا أكثر تحررًا من أي مجتمع آخر سبقه، مما عمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي. قال:-

"أيها الناس: اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، كحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربًا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم – ثلاثة متوالية، ورجب مفرد الذي بين

---

(١) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعيًا إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وهاديه فجميع أعماله هي السنة وجميع تصرفاته هي الأسوة وجميع أقواله هي الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلاً الفصل بين نبي رسول وبين رسالته النبوية. (المترجم)

(٢) للقارئ أن يحكم بعد أن يقرأ الخطبة، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبيل الأفكار ورفيع المبادئ. (المترجم)

جمادي وشعبان. أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحدًا تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله؛ واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبدًا، أمرًا بينًا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلّغت؟".

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قاطعًا مانعًا إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع. وكان مصدر قوّته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة، وبيانه الصريح عن المغزى العرفي المحدود للأهمية المنوطة بمكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سمٌّ خيِّاط مفتوحًا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة. لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع. أو ديانة جوتاما في أيام حياة جوتاما، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ. ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة.

كان دينًا مليئًا بروح الرفق والسماحة والأخوّة؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم؛ كان دين فطرة تحوي ما للصحراء من عواطف الفروسية؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكوين الرجال العاديين. وقد ناصبته اليهودية عداءً مريرًا، وهي التي اتخذت من الرب كنزًا عنصريًا تكتنزه لجنسها. كما تألبت عليه المسيحية وهي التي كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التي لم يكن أي رجل عادي ليستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب؛ كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب بر وهدى وتقوى، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه – في عالم طافح بالتقلقل والخيانة والانقسامات التي لا تسامح فيها – على أخوّة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة في هذه الدنيا، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمدي المتواصل مع التسبيح والعبادة، على حين يكون فيه القدسيون والقسوس والملوك المعمدون لا يزالون يحظون بالدرجات العلا، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التي تتلهف عليها نفوسهم. وقد أوصل محمد (ﷺ) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أن يلجأ إلى أية رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد (ﷺ) فقط، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكر. ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والخيال الخصب للإسلام البدائي، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته. ففي كل أيام حياتهما معًا كان محمد هو الذي يقول الشيء، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان. فإذا داخل محمدًا شيء من التردد [١] سارع أبو بكر إلى مساندته. كان أبو بكر رجلاً عامر النفس باليقين، خلوها من الشكوك، وكانت معتقداته تقطع قطعًا حاسمًا وتتمخض كسكين شاحذة – عن أفعال جازمة. وما يخالجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ما كان ليداري أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحي ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة [٢]. فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى، كان أبو بكر هو الذي أعقبه خليفة له وإمامًا للناس، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تتزعزع في الله وبره وهداه. هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة؛ وهي التي أخمدت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المجبية للصالح العام، وهي المسماة "حرب الردة"؛ وهي التي دعته أن ينفذ إلى سوريا حملة غزو كان النبي الراحل أعدها. ثم أنشأ أبو بكر، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الجبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح، ينصّب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته – بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي – أخذًا بتلك الرسائل التي بعث بها النبي (ﷺ) من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم.

وأوشكت المحاولة أن تؤتي ثمارها. ولو قيض للإسلام عشرون رجلاً من طينة أبي بكر وممن يصغرونه سنًا فواصلوا عمله لنجح على التحقيق في بلوغ تلك الغاية. وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزًا للإيمان والعزيمة، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العالم حتى حدود الصين، اللهم إلا في سهوب الروسيا أو التركستان، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أي قوة من إيمان بحكامهم وزعمائهم. ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثاني (أبرويز)، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته. وكانت فارس مترديه في الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية. فإن قباذ الثاني قاتل أبيه لقي حتفه بعد حكم دام أشهرًا قليلة، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطًا، ولكنها أضعفت قوة البلاد.

---

(١) سبق أن رددنا على المؤلف في مثل هذه النقاط فلا داعي للتكرار والعصمة للأنبياء في أداء الرسالة مكفولة بجميع النصوص المنزلة. (المترجم).

(٢) كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارئ.

ثم إننا لا ندري ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التي جاء بها الرسول ما دامت العقيدة لم تتأثر أولاً وأخيرًا بأي شيء مما يأخذه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأعداء النبي والإسلام في قديم الزمان وحاضره. إن محمدًا هو رسول الإسلام وفكره ومتلقي وحيه وصاحب سنته، ولا يمكن أن تفضل الفروع الأصول. (المترجم).

ولم تنته الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكر. وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام؛ وانتشرت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس؛ وكانت مناطق التخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع للفرس، مقر إمارته الحيرة. وكان سلطان العرب قويًا في مدن من أمثال دمشق، حيث كان السادة من مسيحي العرب يقرءون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء في الصحراء من القصيد. وبهذا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة التمثل مهيأة لتقبل دعوته.

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذاك من ألمع ما خلّد تاريخ العالم. فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستانًا مونقًا من رجال ممتازين ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء. فحيثما حل قائدًا لجيش كان النصر حليفه، ولما أن دفعت الغيرة الخليفة عمر بن الخطاب إلى خلعه – ظلمًا منه لا يغتفر – لم يحدث أية ضجة، بل راح يخدم الله في سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيرًا عليهم [1]. ولسنا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحروب ها هنا؛ وبحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضم إلينا، وإما أن تقتل. فالتقوا بجيوش كثيرة، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها. ولم يحدث في أي مكان أن قوبلوا بشيء اسمه المقاومة الشعبية. فإن سكان أراضي الري والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو برسبيوليس [2] أو المدينة؛ فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب، كان العرب، أعني عرب السنين العظيمة، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق، إذ كان الغزو يتحول إلى ثورة اجتماعية. ولكنها كانت ها هنا ثورة دينية أيضًا لها حيوية ذهنية جديدة متميزة.

---

(1) يقول شورتز في تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوي على وصمة. فإنه ارتكب الفسق وهي خطيئة خطيرة في مجتمع يبيح تعدد الزوجات. (المؤلف)

ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التي يعدها ولز فسقًا قد عرضت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو من نعلم في ورعه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالدًا على تصرفه. وفضلاً عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضي الله عنه عن غيرة ولا ظلم؛ ذكر ابن الأثير أن عمرًا رضي الله عنه استدعى خالدًا إلى المدينة بعد العزل، فلما وصلها وفد على عمر شكاه، وقال قد شكوتك إلى المسلمين، فبالله إنك في أمري لغير مجمل، فقال له عمر "من أين هذا الثراء؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفًا فلك، فقوّم عمر ماله فزاد عشرين ألفًا فجعلها في بيت المال، ثم قال: "يا خالد؛ والله إنك علي لكريم وإنك إلي لحبيب" وكتب إلى الأمصار: "إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به، فخفت أن يتواكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فتنة" وعوضه عما أخذ منه.

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ هـ). (المترجم)

(2) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة شيراز الحالية، غير بعيد من مجرى نهر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر. (المترجم).

وكان خالد هو الذي قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك، وهو أحد روافد الأردن. إذ كانت الكتائب – شأنها على الدوام – خلوًا من القدر الكافي من الفرسان الصالحين؛ فكأن طيف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثًا دون أن يتعظ بمصرعه أحد؛ فكانت الجيوش الإمبراطورية تعتمد في أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الحليفة، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان. وأقام الجيش البيزنطي موكبًا عظيمًا من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بتراتيلهم. ولكن الآثار لم يكن لها أي سحر، كما أن الاعتقاد في الترتيل كان ضئيلاً فأما في الجانب العربي، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطبهم وانطلقت أصوات النساء في المؤخرة بالزغاريد تشجيعًا لرجالهن حسب العادة العربية القديمة. وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان يتلألأ أمام نواظرهم أمران: النصر أو الفردوس. ولم يعد في نتيجة المعركة أدنى ريب بعد انحياز الراكبة غير النظامية. وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتًا لم يلبث أن تحول إلى مذبحة. وكان الجيش البيزنطي يحارب وظهره إلى النهر، الذي أصبح للوقت مليئًا بأشلاء قتلاه.

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئًا فشيئًا لأعدائه الجدد، بعد إذ لم يمض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير. وسرعان ما سقطت دمشق، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية. ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها، على أنهم ما لبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين بها إلى آخر الدهر.

وفي نفس الوقت حدث في الجبهة الشرقية، بعد أن أصاب العرب نجاحًا ابتدائيًا سريعًا استولوا به على الحيرة، أن اشتدت مقاومة الفرس. وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد، واكتشاف قائد ذي مقدرة هو رستم. فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧). وكان جيشه جحفلاً مخلّطًا كالذي اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذي هزمه الإسكندر في إسّوس. كان خليطًا من المجندين، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حربيًا، وجلس على عرش ذهبي من فوق منصة مرتفعة خلف الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركة ويشرف عليها، وهذا العرش يذكر القارئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة. واستمرت المعركة ثلاثة أيام. وكان العرب في كل يوم يهجمون، فيصمد الجيش العظيم الفارسي في مكانه، حتى يسدل الليل ستاره آمرًا بالهدنة، وتلقّى العرب في اليوم الثالث أمدادًا، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة، بأن قاموا بهجوم بالفيلة. ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة في مبدأ الأمر كل شيء أمامها؛ ثم جرح أحدها جروحًا أليمة، فجن جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين، وانتقل الذعر منه إلى الفيلة الأخرى؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان في أصيل شمس الغروب، وهما يلاحظان الجهود الجنونية التي تبذلها هذه الوحوش الشهباء الصارخة كي تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتي أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت في الجيش الفارسي آخر الأمر ولم تخض صفوف العرب، وإن كان العرب هم الذين قيض لهم أن يهجموا هجمة فعالة في الصميم على أثر الفوضى التي وقعت في صفوف أعدائهم. وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة. وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم الله، ويضغطون على الفرس

المحطمين المتقهقرين وبزغ الفجر وفلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايا المعركة المتناثرة. وكانت تلك الفلول تمضي في طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين في النزع. فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسّرا، وكان رستم صريعًا بين كومة من الموتى.



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٦٣٤، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان حَمًى للنبي [1]. وقد أنجزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ – ٦٤٤). فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طردًا تامًا. على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس. واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة، كما فتحت فارس وراء النهرين. وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبيًا من يد الروم إلى العرب [2]، وبذلك استطاع الجنس السامي في بضع سنين، باسم الله ورسوله، أن يسترد تقريبًا كل الأقاليم التي خسرها للفرس الآريين

---

[1] ورد في الأصل Brother- in -Law أي عديل النبي أو شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هنا، حيث تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر. (المترجم).

[2] إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحي، ثم يظل العالم بعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئًا عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية. وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فجأة بعثة حبشية تستعلم عن بعض نقط معينة تتعلق بالعقيدة المسيحية. وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة في الشرق هي بلاد بريسترجون أي القديس يوحنا. والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخرى عن زعماء من المغول تنصروا على أيدي النساطرة. (المؤلف).

قبل ذلك بألف سنة. وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار، وبـ ذلك حدث أن "الصليب الحق" الذي حمله الفرس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيـ رة انتقـ ل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى. على أنه ظل باقيًا في أيد مسيحية؛ ونصت المعاهدة نفسها أن يـ نعم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الرءوس فقط؛ وتركت الكنائس بأسـ رها والآثـ ار والـ ذخائر المقدسة بأجمعها في حوزتهم.

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطًا عجيبًا. فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه. وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقيمًا في المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة. فحضر إلى بيـ ت المقـ دس (٦٣٨)، على أن طريقة حضوره والحالة التي وجدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التي أوهن النجـ اح بهـ ا بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها. جاء في رحلة طويلة أمدها ستمائة ميل ومعه تابع واحد ليس غيـ ر؛ وكان راكبًا جملاً، وكانت عدته في السفر كيسًا صغيرًا من شعير وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب. واستقبله قواده الكبار خارج المدينة، وهم يرتدون أثوابًا فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشـ ة السروج والأعنّة. وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب. فانزلق من رحله، وجمع بيديـ ه الثرى والأحجار، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصيح بهم سبابًا. فلماذا كانت هذه الإهانة؟ وما معنـ ى هذا التأنق؟ وأين المقاتلون الأشداء؟ وأين رجال الصحراء الخشنون؟ إنه ليأبى علـ ى هـ ؤلاء "الطـ واويس" المتأنقين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا في معيته. فواصل المسير مع تابعه، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد، خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار. التقى منفردًا ببطريرك بيت المقدس، وهو الذي تملك المدينة فيما يظهر من حكامها البيزنطيين. وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا معًا بالأمـ اكن المقدسـ ة، وأنشـ أ عمر، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوي الثياب الفاخرة.

ومما له دلالته كذلك على نزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله – وكـ ان ابتنـ ى لنفسـ ه قصـ رًا بالكوفة – يأمره فيها أن يهدمه ثانية.

كتب إليه يقول: "بلغني أنك شئت أن تحاكي إيوان كسرى [1]، وأنك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التـ ي كانت له، أفترغب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى من حراس وحجاب؟ أم تريد أن تباعـ د بينـ ك وبـ ين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجابًا؟ أم تريد أن تخالف سنة "النبي"، وتصير إلى ما كان عليـ ه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة، فتردى في نار جهنم كما تردوا؟" [2].

---

(١) بمدينة طيشفون.

(٢) نقلاً عن: . Schurtz in Helmolt's History of the World

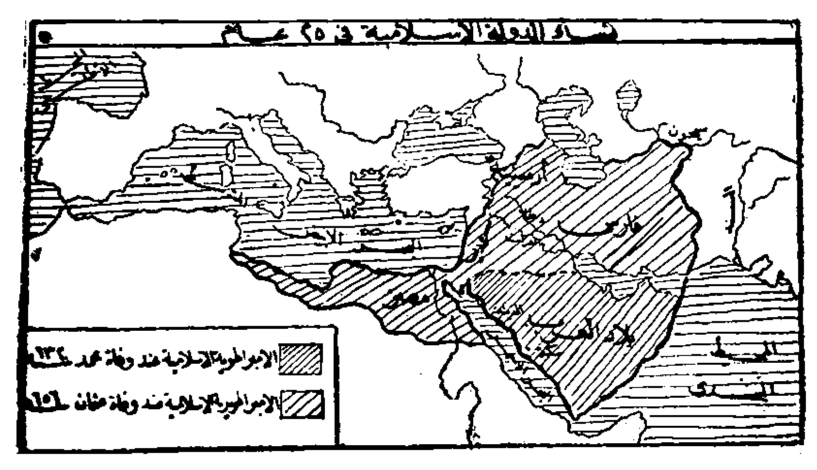
٦- أيام عظمة بني أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب [1] أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام. لا يتسع المجـ ـال هنـ ـا لوصـ ـف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين ومائة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحـ ـيط الأطلسي وإسبانيا، ومن قشْغَر على حدود الصين إلى مصر العليا. وبحسبك خريطتين لتبيان المدى الذي دفع به الباعث القوي للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربي قبل أن استطاعت النزعة الدنيويـ ـة أي روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريري، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لـ ذكاء العـ ـرب وإرادتهـ ـم. وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربي العظيم في آثار خطى يوآن تشوانج، وكيف تم في سهولة بإفريقية أن فتوح الوندال السهلة قد كُررت في الاتجاه المضاد أعني من الجنوب إلى الشمال، وإذا خامرت القـ ـارئ أيـ ـة أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلّينية أم مصـ ـرية، غمرها هذا الفيضان الجديد، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيـ ـرًا لـ ـه. فـ ـإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت تلك الأيام تقديمه. لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان شعوبًا تبلد حسها سياسيًا، تُسلَب وتُظلم وتُخَوَّف ولا تُعلم ولا تُنظم، كما وجد حكومات أنانية سـ ـقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلي في العـ ـالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب الجمهرة الغفيرة من البشرية عامة نظامًا أفضل من أي نظام آخر سـ ـبقه. وكـ ـان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوربا، قـ ـد انحلت انحلالا تامًا وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام. ولم يحدث أن دب دبيب الانحلال في الإسلام أيضـ ـا، إلا عندما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص ممثليه.

ولقد تبددت معظم طاقته في غزو بلاد فارس والتركستان وتمثُّلهما. وكانت أقوى طعناته هي الموجهة من فارس نحو الشمال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر. ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية، فلا شك في أنه كان مستطيعًا انتزاع القسطنطينية حوالي القرن الثامن والوصول إلـ ـى قلـ ـب أوربـ ـا بـ نفس السهولة التي وصل بها إلى هضبة البامير. حقًا إن الخليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٦٧٢ – ٦٧٨)، وكذلك فعل سليمان (٧١٧، ٧١٨)؛ بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصـ ـل، وظلـ ـت الإمبراطوريـ ـة البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصنًا متداعيًا يدفع الشرق عن أوربا. ولا جدال أن الإسـ ـلام كـ ـان يستطيع على التحقيق أن يجد في المنتصرين حديثًا أو الباقين على الوثنية من آفـ ـار وبلغـ ـاريين وصـ ـربيين وصقالبة وسكسون – رجالاً مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى. ومع أنه بدلاً مـ ـن الاستمساك بالاستيلاء على القسطنطينية، دار إلى أوربا أولاً بطريق إفريقية وإسبانيا الملتوي البعيد، فإنه لـ ـم يصادف إلا في فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيقاف تقدمه.

---

[1] درج كتاب الغرب على تسمية هذا الخليفة باسم عمر الأول، وتسمية عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي باسم عمر الثـ ـاني (المترجم).



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عامًا

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البداية. فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخ ب ف ي المدينة للخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصياح، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثال ث، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة. ولم يكونوا من رجال المدينة. ومع أن أبا بكر وعمر كان رجلي بساطة وتقشف مطلق واستقامة، فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة، وهو رجل من طراز أصد حاب الثي اب الحريرية. فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب، وبخاصة من أجل مكة ب بلاد الع رب، وبالأخص لنفسه هو وللمكيين ولعشيرته الأقربين بني أمية. كان رجلاً ذا مكانة شريفة، نصب نفسه لخدم ة وطنه وبلدته وقومه. ولم يسلم مبكرًا كما فعل سلفاه الأولون[1]. وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملي ة أخذ وعطاء عادلة [كذا!...] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيبًا له شخصد ية مدهش ة متوق دة، ويصبح ملكًا شرقيًا، ككثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد، ملكًا لا بأس به إذ قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئًا.

وإن حكم عثمان ومقتله ليبرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي[2]، بمقدار ما شهدت حي اة أب ي بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية. إذ كان محمد (صد لى الله علي ه وس لم) يلج أ إل ى الدبلوماسية في أوقات كان أبو بكر يجنح فيها إلى الصلابة، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرس تقراطي الذي ظهر بتولية عثمان أحد ثمرات تلك التصرفات الدبلوماسية. وكانت عواقب ذلك الحريم، ح ريم النب ي المتجمع من غير تمحيص، والمنازعات والغيرات العائلية التي استكنّت خلف أمور المسد لمين أثن اء حك م

([1]) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكله م من المهاجرين المخلصين لله وللرسول ولم يكن لأحدهم بغية خاصة من وراء إسلامه فقد ضحى كل منهم في سبيل الإسلام ب .النفس والنف .يس وتحم .ل آلام التع .ذيب والتش .ريد والفق .ر والمهاذ .ة م .ن أج .ل عقيدت .ه وديذ .ه. وع .ن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التي أدت إلى مقتله، انظر الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم).

([2]) أسلفنا عليك القول في تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية. (المترجم)

الخليفتين الأولين، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار. فإن عليًا وهو ابن عم النبي وابنه المتبنى[1] وزوج ابنته فاطمة، كان يعد نفسه صاحب الحق في الخلافة دون سواه. وكانت ادعاءاته تيارًا خفيًا يترقرق معبـ ـرًا عـ ـن امتعاض المدينة، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بني أمية. ولكن عائشة زوجة النبي الحظية، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادي عليًا. فانحازت إلى عثمان... وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حمأة هذا النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل[2].

وفي ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان – وهو شيخ في الثمانين – بالأحجار في شوارع المديـ ـة ثـ ـم طاردوه إلى منزله وقتلوه. وأصبح عليٌ آخر الأمر خليفة لكي يقتل بدوره هو أيضًا (٦٦١). وفـ ـي إحـ ـدى معارك هاته الحرب الأهلية ميزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزًا شجاعة حادة الطبع، بأن قادت [3] ضد عليّ معركة وهي في هودج على جمل. فأسرت وأحسنت معاملتها.

---

(1) لم يتبن النبي صلى الله عليه وسلم عليًا وإنما هو قد ضمه إليه؛ وهو ابن عمه أبي طالب، في أيام اشتدت فيها الأزمة علـ ـى الناس وفعل مثل ذلك العباس بجعفر بن أبي طالب تخفيفاً عن أبي طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه وآمن به وصدقه. (المترجم).

(2) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تأخر علي كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر بما عده الشيعة سندًا لأحقيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعثمان؛ فإننا نبادر إلى القول بأن عليًا إنما تأخر عن بيعة أبي بكر لا لأنه يرى أحقيته فـ ـي الخلافة، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أنه يبرم الأمر من دونه ومن دون بني هاشـ ـم فلما تبين له إجماع المسلمين دخل في الجماعة وبايع. فأما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير، فبعضهن كـ ـان زواجه منها بسبب التشريع كما حدث في حالة زينب بنت جحش مثلاً، وبعضهن كان زواجه منها للتآلف وإحكام الـ ـروابط كما حدث في حالة حفصة. وبعضهن للوفاء لهن بما يكفيهن شر العيلة مثل أم حبيبة مثلاً إلخ. فإن أردت الاستزادة فعليـ ـك بكتب السيرة ففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضي الله عنهن غرض يهدف إليه، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شئون الدولة إطلاقًا لا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعـ ـده. ومـ ـا كـ ـان خروج عائشة رضي الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلي كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليًا لم يكترث لدم عثمان المطلول فخرجت معهما. حتى إذا مرت بالحوأب واشتد نباح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلمـ ـا ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أيتكن تنبحها كلاب الحوأب إلخ" صـ ـرخت وأبركـ ـت الجمل وهمت بالرجوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف علي كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلـ ـى البصرة وهذا الخروج من جانب عائشة رضي الله عنها لم يكن منها إلا حفاظًا على الـ ـدم المطـ ـول ومطالبـ ـة بمعاقبـ ـة المجرمين وإن كانت قد خدعت بهذا الأمر وعميت عليها الأغراض الحقيقية للذين حفزوها على الخروج معهم. والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عثمان وتسلط بني أمية في إقامة على شئون المسلمين تسلطًا أسخط النـ ـاس (انظـ ـر الموسوعة العربية الميسرة). (المترجم).

(3) هي لم تقد المعركة وإنما كان هودجها في وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتفاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم).

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة في غزوها المظفر للعالم، أصلبها هذا الداء، داء الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها. ماذا كانت قيمة "حكم الله في العالم" لدى عائشة، ما دامت تستطيع أن تقضي على فاطمة الممقوتة؟ وماذا كان يجني الأمويون وأتباع عليٍّ على السواء من وحدة البشرية، وقد قام بينهم مثل ذلك الثأر العظيم الحار الذي يتلهون به ويتسلون والذي الخلافة هدفه وغنيمته في النهاية؟[1] لقد انقسم العالم الإسلامي شطرين، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء في المدينة. ولا يزال هذا الشقاق قائمًا إلى اليوم. فإن هناك حتى يومنا هذا قسمًا رئيسيًا من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حق علي الوراثي في الخلافة "كمادة رئيسية في عقيدتهم"! وهم منتشرون في فارس والهند.

ولكن شطرًا آخر يعادل هؤلاء في الأهمية هم "السنيون"، الذي لا يسع المراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة. ونحن – على قدر ما نستطيع أن نستنتج على بعد الزمان بيننا وبينهم – نرى أن عليًا كان فردًا عاديًا جدا.

ومراقبة هذا الصدع يتمشى في بداية الإسلام البديع الرائعة، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعف. وإنا لنحيل القارئ إلى "الأدب" [2] الكثير المدون في هذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن علي سممته زوجته، وكيف قُتل أخوه الحسين. ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما في هذا المكان، لأنهما لا يبرحان يمدان قسمًا كبيرًا من البشرية بمجال مفعم بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل. وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة. وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصادمات الناشبة بين مختلف الأطراف ورواحها، وطبيعي أن تبتدئ لشأنها في أثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين. فهل يجب أن يعاد بناؤها في نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيرًا؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه، كيف أن الكفاح الحتمي لهذا الدافع الجديد، الذي هو أحدث الدوافع وآخرها، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية، والذي يكافح ما ركب في البشرية من نزعات دنيوية؛ ورأينا كذلك كيف أن دار النبي بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشياء بتركة مثقلة بالأعباء في العقيدة الجديدة[3]. ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثة في إصلاحات محمد

([1]) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعاته الأولى وهي معجبة فعلاً، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الخلافات التي نشبت بين كبار القادة. ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياء إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطئ في غيرة عائشة من فاطمة. (المترجم).

([2]) يقصد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التي ظهرت حول ذلك الموضوع، فالأدب هنا مستخدمة بمعناها العام الواسع. (المترجم).

([3]) وما دخل دار النبي بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟ الحق أننا لا نجد مبررًا لهذا الإقحام الغريب. وكل ما في الأمر أن بني أمية انتهزوا فرصة ضعف عثمان وقرابتهم منه فوطدوا مركزهم في الدولة. وكانوا قومًا تجارًا دنيويين، ذوي نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاءهم سوى علي بن أبي طالب وهو رجل زاهد لم يؤت قدرتهم على الختل والخداع. (المترجم)

العالمية. فإنه كان عربيًا أميًا، غير ملم بالتاريخ، ولا بكل تجارب روما وبلاد الإغريق السياسية، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد اليهودية الحقيقي [1]؛ فترك أتباعه من غير خطة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين العامة وتركزها [2]، وخلّفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التي ه ي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها العصري). وكان حكمه حكمًا فرديًا مطلقًا، ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة. وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدمًا بل تراجعًا [3] عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية. وكان نقض هدنة الحج [4] الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ. والله هو المدبر الأعلى للإسلام نظريًا، ولكن سيده الفعلي كان على الدوام أي رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها. وإذ إن رجلاً كهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله، فإن قانون الإسلام النهائي كان إرادة ذلك الرجل.

وقد ارتفع شأو أسرة بني أمية زمانًا بعد موت علي وظلت قرنًا من الزمان تقريبًا تعطي الإسلام حكامه وولاته.

---

(1) هذه الأمية وعدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أرض اليهودية الحقيقي هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة منها على سبيل المثال: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت).

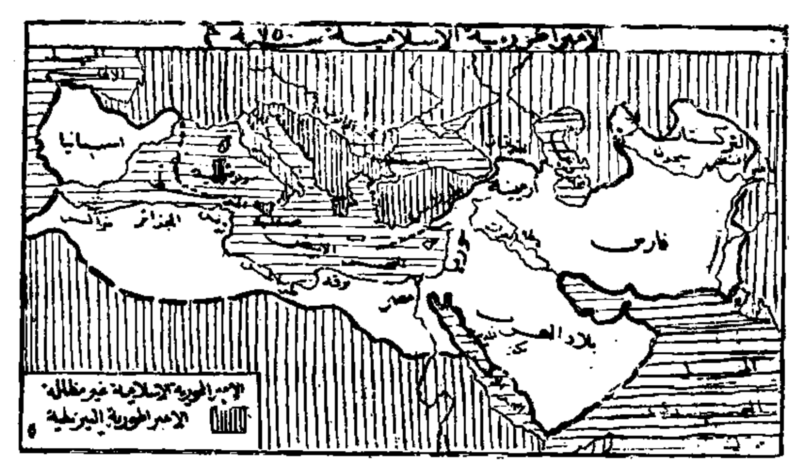
﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (سورة الشورى). (المترجم).

(2) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستخلف أحدًا من بعده، وفاتَه أن الشورى من النقاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن. وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأوائل. (المترجم).

(3) إن كان الانصراف عما كانت عليه الجاهلية من إباحية وتفلت وخروج عن السمة الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به، يعد في نظر المؤلف تراجعًا فأنعم به من تراجع. (المترجم).

(4) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جحش ويتخذ عنها مغمزًا على الإسلام؛ ونسي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جحش وأصحابه لغزو أو شيء من أعمال القتال. وإنما أرسله للاستطلاع فقط؛ وذلك ظاهر تمامًا من كتابه ﷺ لعبد الله، كما أن المؤلف أغفل غضب النبي من القوم عند عودتهم بقوله؛ "**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**" ووقّف العير والأميرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، وكذلك سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا واشتد تعيف المسلمين لهم حتى أنزل الله تبارك وتعالى ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد على المؤلف الذي يتخذ من هذه السيرة وسيلة لأخذ المآخذ على الإسلام في بدايته متناسيًا صد الكفار المسلمين عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكى من القتال وتستدعيهما. هذا، وزيادة في الإيضاح نقول إن سرية عبد الله بن جحش لا علاقة لها بغزوة بدر الكبرى لأن المسلمين هم الذين خرجوا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش لحماية عيرهم. ولكن العير حين أفلتت من المسلمين عز على كفار قريش وأقيالها أن يرجعوا فاستعمل بعضهم دم الحضرمي (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش) وسيلة للتحريض على من قال منهم بالعودة دون قتال، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله الله نكالاً عليها ونصر المسلمين نصرًا مبينًا. (المترجم).

ويبلغ من انشغال مؤرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن أصبح من العسير علينا أن نتتبع التاريخ الخارجي لتلك الفترة. ومهما يكن الحال فإنا نجد سفناً إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطي في قتال بحري عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهي إقليم جبلي ج.غ. آسيا الصغرى) (٦٥٥ م)، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر في هذا الوقت المبكر من تاريخهم؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح. والراجح أنه كان في معظمه مصريًا. ولا شك أن الإسلام ظل بضع سنين متحكمًا في شرق البحر المتوسط، وفي ٦٦٩ ثم في ٦٧٤ قام معاوية (٦٦١ – ٦٨٠) أول خليفة أموي عظيم بهجومين بحريين على القسطنطينية. وكان لزامًا أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام، طالما كان تحكم الحكم العربي، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس [1]. وفي نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد في صميم آسيا الوسطى. وعلى حين كان الإسلام آخذًا في الاضمحلال فعلاً في منطقته المركزية، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشودًا عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحًا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها في الحياة. ولم تعد المدينة بعد مركزًا صالحًا لمغامرات الإسلام الهائلة في آسيا وإفريقيا والبحر المتوسط، وبذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين.



(شكل ١٣١) خريطة الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠م

---

(١) وفي عهد معاوية أيضًا استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وإقريطش وإرواد وقبرص بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وعبد الله بن أبي السرج وغيرهما من أمراء البحر المظفين. (المترجم).

ومن أعظم هؤلاء – يوم تبددت إلى حين سحب المؤامرات على العرش – عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ – ٧١٤) اللذان ارتفع شأو الأسرة الأموية في عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة. فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس، على حين كانت ممتلكات الخليفة في الشرق تتاخم حدود الصين. وأنفذ الخليفة سليمان بن الوليد [١] (٧١٥) سلسلة ثانية من هجمات المسلمين على القسطنطينية، كان أبوه [٢] قد وضع خططها وأعد العدة لها. وكان الهجوم بحرًا شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان – وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من توّنا لم تكن غزيت بعد. وقد أخذت السفن بصفة رئيسية من مصر. وأبدى الإمبراطور ليو الإيسوري [٣] – وهو مغتصب للعرش – في الدفاع مهارة وعنادًا خارقين للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجا مباغتاً رائعًا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أنزلوها على الناحية الآسيوية من البسفور، وبعد حملة دامت سنتين في أوربا (٦١٧ – ٧١٧) دُحر المسلمون. ثم جاء شتاء لا نظير له في القساوة فأكمل هزيمتهم.

ومن هذه الآونة فصاعدًا يبدأ مجد السلالة الأموية في الأفول. لقد تبدد عند ذاك الدافع الأول الهائل للإسلام. فلم يحدث بعد ذلك أي توسع فضلاً عن ظهور اضمحلال بيّن في الحماسة الدينية. وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين، ولكن هضمه لهؤلاء الملايين كان هضما ناقصًا وسيئًا. فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة هذه ابتلعت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العرب واليهود والمسيحيين والمانوية والزرادشيتيين والوثنيين الطورانيين. وحتى ذلك الحين، كان من الخصائص المشتركة بين جميع عظماء أصحاب الرسالات الدينية، الداعين إلى توحيد العالم، الوقوع في خطأ شائع، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال الناس إليها قبل زمانهم كما لو كانت مثلاً عليا عمومية. فكانت دعوة محمد مثلاً متجهة إلى الفروسية التقليدية، وإلى ما وقر في نفوس أذكياء العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية. وكانت هذه الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضميرهما. فكان كل ما فعله أن أخرجها من مستقرها [٤].

---

(١) سليمان هو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه. (المترجم)

(٢) ظاهر أن المقصود بأبيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا. (المترجم)

(٣) انظر كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٤٥) وقد عرّبه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب (مكتبة النهضة المصرية).

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسوري) (٦٨٠ – ٧٤٠) جندي اغتصب العرش في ٧١٧، ونجح في الدفاع عن القسطنطينية على العرب. (المترجم).

(٤) لو صح هذا الزعم لكان لزامًا أن تسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في يسر وسهولة، مع أن الواقع أنها لقيت في مكة، مهدها، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديدًا من المكيين للمسلمين ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولبث المسلمون يتجرعون كئوس العذاب ألواناً ولم يسلم من ذلك أحد منهم، كما تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشميين وحرمانهم اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا من كل ما هو مقرر لغيرهم، لقاء نصرتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام وعدم تسليمه لهم ليقتلوه ويستريحوا مما كاله لأصنامهم من السب ولتسفيهه أحلامهم ونيله من عقولهم ومداركهم، بل إنهم عقدوا الخناصر بعد أن أعيتهم فيه الحيلة، على قتله وتفريق دمه في القبائل إعناتاً لبني هاشم وإعجازًا لهم عن إشهار السيف للثأر. وعندئذ

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قالبها الخاص، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها، والتزمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم. وكان مرجعها الوحيد هو القرآن. وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التي لم تتذوق نغمات اللغة العربية، أعني كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم خليطًا من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التي يمازجها – ولنقلها صراحة – قعقعة غامضة لا كيف لها [(1)]. وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غيابًا تامًا. ذلك عندنا هو مردّ ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد للانضمام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها. وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم. يرجع ذلك الغلوّ الفقهي الذي سرعان ما نهض يتساءل: أكان القرآن – ولم يبرح منذ الأزل – قديمًا قِدَم الله [(2)]؟ وإنا لتأخذنا الدهشة حيال خروج هذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحي من رجال العلم أسلم، وأراد أن يُسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه: "في البدء كانت الكلمة، والكلمة عند الله، وكانت الكلمة الله [(3)]".

ولم يحدث قبل ذلك أن واحدًا من عظماء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يومًا أدنى فهم للواجب التعليمي العظيم، واجب الشرح الواضح المنوع فضلاً عن التنظيم الفكري الذي تنطوي عليه مقدماتها وقضاياها الأولية: بل تراهم جميعًا يكررون نفس القصة، قصة الانتشار السريع الذي نشبهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد.

ولا ينقضي طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموي هو الوليد الثاني (٧٤٣ – ٧٤٤)، الذي هزأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يُقم الصلاة. وربما كانت هذه القصص صحيحة أو ربما كانت تشاع لأسباب سياسية. ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق وترفها. وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هي عائلة العباس (العباسيين) ظلت تدبر الخطط زمنًا طويلاً للاستيلاء على صولجان الحكم، فأنشأت تستغل التذمر العام، والنزاع بين بني أمية وبني العباس أقدم من الإسلام. وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد. وحمل هؤلاء العباسيون لواء "شهداء" الشيعة: عليّ وابنيه

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة الحرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التي كان أهمها وأنجعها الإقناع بالحجة الدافعة والمنطق السليم المعجز. (المترجم).

(1) هذا رأي لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلاً، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها تلك المؤهلات التي احتازها الوليد بن المغيرة أحد أقيال مكة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تؤهله أن يتذوق ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاني فذة. إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن "والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته" البداية والنهاية ج ٣ ص ٦١. (المترجم)

(2) سير مارك سايكس.

(3) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول: آية ١.

الحسن والحسين، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء [1]. وكان علم بني أمية أبيض؛ فاتخذ العباسيون علمًا أسود حدادًا على الحسن والحسين، وأسود لأن السواد أشد تأثيرًا في النفوس من أي لون آخر. وفضلاً عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد عليّ مغتصب. وفي ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير، وطاردوا آخر خليفة أموي وقتلوه بمصر. وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، فبدأ حكمه بأن جمع في سجن واحد كل ذكر حي من سلالة أمية استطاع أن يضع يده عليه، وأمر بهم جميعا فذبحوا. وقد جمعت أجسامهم فيما يقال، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة، جلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون [2]. زد على ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة. وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلي من مظالم، وزالت أسرة أمية من التاريخ.

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها.

---

(1) ليست الشيعة عليًا وابنيه الحسن والحسين، وإنما هي حركة ينتصر أهلها لعلي وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول في الخلافة أي أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذي أكد العباسيون أنه يرجح حقهم في الخلافة على حق الأمويين لأنهم أبناء عم النبي. وهنا بالذات يضع المؤلف يده، دون أن يدرك، على أساس الصدع الذي ظهر في الإسلام بسبب شيخوخة الخليفة عثمان، وهو الشقاق القديم في الجاهلية بين الهاشميين والأمويين. (المترجم).

(2) ليس هذا عمل أبي العباس وإنما هو عمل عمه عبد الله وقائد جيشه وواليه على الشام. (المترجم)

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية علي لم يقدَّر لها أن تسهم في هذا النصر طويلاً. فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكامًا من طراز أقدم من الإسلام. فلما قضوا من قصة عليّ وطرهم المنشود، كان ثاني إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة علي وفاطمة ويذبحهم.

وواضح أن التقاليد القديمة في فارس الساسانية وفي فارس قبل الإغريق كانت في طريق عودتها إلى العالم. وبارتقاء العباسيين عرش الخلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شمال إفريقية وإسبانيا التي نشأت فيها دول إسلامية مستقلة، وكانت إسبانيا من نصيب رجل من بني أمية أفلت من الموت.

وانتقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة. وشيد المنصور الذي تولى الخلافة بعد أبي العباس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب المدائن (طيشفون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة. وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية. ولم يعد للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قط إلا كمركزين للحج يولي المؤمنون وجوههم شطرهما في الصلاة[1]. على أن العربية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن.

ولن ندلي إليك إلا النزر اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبي العباس. وكانت تنشب سنة بعد سنة في آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة، لم تفز فيها بيزنطة ولا بغداد بأي كسب دائم، وإن وصل المسلمون في غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور. وظهر نبي كذاب هو المقنع، ادعى الألوهية واستمر مدة قصيرة الأمد، ولكنه أتعب الدولة وشغلها. ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم في أسفار التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتي سفر قديم. وثمة خليفة عباسي آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية حقيقية سواء بسواء، ذلك هو هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩). لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء في عالم الحقيقة، بل كان كذلك خليفة إمبراطورية خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدي، فهو هارون الرشيد في "ألف ليلة وليلة".

---

(1) حج المسلمين هو للبيت الحرام، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هي المسجد الحرام بمكة؛ وللمدينة حرمتها الخاصة في نظر المسلمين؛ فهي في نظرهم فقط مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثواه الأخير بعد الوفاة، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة للتزود عن قرب بزيارة قبر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. (المترجم).

ويدبج السير مارك سايكس في وصف إمبراطوريته الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة [1]، كتب يقول: "كان البلاط الإمبراطوري مهذبًا مترفا غنيًا غنى لا حد له؛ وكانت العاصمة بغداد، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحكم والإدارة، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيبًا تامًا؛ وفيها كثرت المدارس والكليات؛ وإليها تقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن.. وكانت العواصم الإقليمية مزدانة بالمباني العمومية الضخمة؛ وتتصل فيما بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية، وكان الجيش مخلصًا للخليفة وفيا ذا اقتدار وشجاعة؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء. وكانت الإمبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية [2] إلى عدن، ومن مصر إلى آسيا الوسطى. وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة. وكأنما اختفى المغتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الإسلامية اختفاء تامًا. وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة... وكانت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الإمبراطورية وأطباء الحكومة.. فأما في أعمال الحكومة، فإن طرائق الإدارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي. فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تدار كل منها من دواوين منفصلة على أيدي وزراء وموظفين، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين في هذه الإدارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيديهم هم رويدًا رويدًا، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أي اتصال مباشر برعاياه. كان القصر الإمبراطوري ومن به من حاشية، مؤسسين بالمثل على سوابق وتقاليد رومية وفارسية. وكان الخصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكي ويشغل العقل الملكي بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة. وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا، وتضيف إلى سيل النقود الهائل المأخوذ من فيء الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لدن قواد القوات المغيرة المظفرة، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان. وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذي لا نهاية له، وهو المماليك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية، وكان يزيد دخل العراق ثراء، كما كان – بالإضافة إلى حركة التبادل التجاري الضخمة التي كانت بغداد مركزًا لها، يخلق طبقة كبيرة قوية من ذوي اليسار: تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذي تحملهم عليه أمزجتهم، بأنين القصور لأنفسهم، متنافسين فيما بينهم في بذخ ترفهم، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكرهم متلهين بالفلسفة، معضدين مدارس للفكر متنوعة، باذلين الصدقات وسالكين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور.

---

(1) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

(2) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) ممر ضيق يخترق سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى، والطريق الرئيسي منه يمتد من الغرب، في منحدر طويل وعر يبدأ من الهضبة الوسطى، إلى وادي أطنة (أدنة) وطرسوس. واتساع الطريق عند البوابة نفسها ٢٥ قدمًا. (المترجم).

"ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية في أيام هارون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع في اعتباره أني وصفت الإمبراطورية بالنظام، والإدارة بالدقة والاستقرار، والجيش بالاقتدار، والثروة بالوفرة. ويرجع ذهابي لهذا الرأي إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شيء أصيل وحيوي في الإسلام، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الإمبراطوريات التي حطمها الإسلام من قبل. ولم يكن في الإمبراطورية شيء يستثير في قادة الشعب أسمى الغرائز؛ إذ إن الجهاد، أو الحرب المقدسة، قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على الغنائم. وبات الخليفة إمبراطورًا أو ملكًا للملوك مترفًا فاخرًا. على حين انتقلت الإدارة من النظام "الأبوي" إلى نظام مركزي بيروقراطي. وأخذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إيمان بديانة الدولة. بينما أخذ التأمل والنظر الفلسفي والمعيشة الراقية يحلان محل العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية. وقد أهمل كل من الخليفة ومستشاريه إهمالاً تامًا صرامة الإسلام وبساطته، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الإمبراطورية. وكان هارون الرشيد نفسه من معاقري النبيذ [1] وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطير [2] والحيوان والإنسان.

وإنا لنتوقف هنيهة ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجأة أنها لا تزيد عن غلالة برّاقة تستر رفات المدنيات الغابرة ورمادها".

مات هارون الرشيد سنة ٨٠٩. وما إن مات حتى هوت إمبراطوريته العظيمة في حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات. والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم، تأتي بعد ذلك بمائتي سنة عندما انثال الترك من التركستان جنوبًا بقيادة رؤساء آل سلجوق العظام، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد، بل آسيا الصغرى كذلك. ونظرًا لانحدارهم من الشمال الشرقي، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس، التي ظلت حتى ذاك الحين تصد المسلمين. وكانوا لا يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج لمحة سريعة قبل ذلك بأربعمائة سنة، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي، أي رجالاً ممن كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الإسلام. فأحدثوا في قوة الإسلام انتعاشًا عظيمًا، وأداروا أذهان العالم الإسلامي من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد المسيحية. ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الإسلامي واضمحلال شأن الأمويين. أما تلك الحروب التي دامت بين المسيحية والإسلام فكانت بالأحرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر منها حربًا متصلة الحلقات. ولم تصبح كفاحًا مريرًا تعصبيًا من جديد إلا في القرن الحادي عشر.

([1]) ذكروا أن هارون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنهم اختلفوا في نوع شرابه من حيث الاختمار والتأثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم عند أبي حنيفة والظاهر أن هارون الرشيد كان ممعودا وكان الشراب ضروريًا له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقرًا للنبيذ المحرم. (المترجم).

([2]) انظر "حضارة الإسلام" لجرونيباوم وترجمة المترجم، (الألف كتاب ومكتبة مصر بالفجالة ص ٤٤ – ٤٥) في اقتباس عن البغدادي في وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المغردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته. (المترجم).

٨– الثقافة العربية

على أنا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأتراك والصليبيين، وعن الحروب العظيمة التي ابتدأت بين المسيحية والإسلام، والتي خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر، نرى من الضروري أن نوجه مزيدًا من عنايتنا للحياة الفكرية في العالم الناطق بالعربية الذي كان آخذًا عند ذاك في الانتشار انتشارًا يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التي تسلطت عليها الثقافة الهلّينية يومًا ما. فقد كان الذهن العربي، قبل محمد(ﷺ) ببضعة أجيال متقدًا بنار تسري تحت الرماد، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني. وما لبث ذلك العقل – بتأثير ما أحرز من النجاح القومي والعنصري – حتى تأجج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق في أزهى عصورهم. فأحيا من جديد بحث الإنسان وراء العلم. فلئن كان الإغريقي أبا للطريقة العلمية، فلقد كان العربي أبا روحيًا لها وشريكًا له في أبوتها. فمن العرب، وليس عن طريق اللاتين، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة.

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا، يجب أن نكتبها في قدر معين من التحفظ فإن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربي القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلّينستية [١] بعد أيام الإسكندر بالإغريقي الأوربي الأصلي. إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية. بل ضمت بين دفتيها مجموعة من الثقافات السابقة عليها، هي ثقافة فارس في عهد الأسرة الأرشكية [٢] والثقافة القبطية لمصر المهلنة. إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية في سرعة عظيمة على أنهما ظلتا في جوهرهما فارس ومصر.

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الإغريقية. حقًا إن ذلك لم يحدث في الإغريقية الأصلية ولكن عن طريق الترجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الإغريق. ويلوح أن المسيحيين النساطرة، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية" كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنًا من علماء اللاهوت في بيزنطة، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيرًا من مسيحيي الغرب الناطقين باللاتينية. وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للدولة الساسانية، كذلك تسامح معهم الإسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك في القرن الحادي عشر. كانوا العمود الفقري لثقافة العالم الفارسي. وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستي، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء. ففي عصر بني أمية كانت غالبية الأطباء في دولة الخلافة من النساطرة، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الإسلام دون أن يلم بهم أي ندم خطير أو أي تغير عظيم في مرتزقهم أو أفكارهم. ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من

---

(١) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلينستية أي اليونانية بعد عصر الإسكندر انظر للمترجم كتاب "الحضارة الهلينستية" (تارن) مكتبة الأنجلو والألف كتاب. (المترجم).

(٢) الأرشكيون Arsacide: هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هي الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف جميعها ومنها أردوان الأصغر الذي نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه، وأردشير هذا هو مؤسس الدولة الساسانية في فارس. (المترجم)

الإغريقية والترجمات السريانية. وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات. ولا شك أن عتادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيودوراس من موارد معاصرة، يبدو في حالة إعواز تستحق الرثاء. وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربي الغفل متوقدًا مستطلعًا، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعًا. تعلم كثيرًا واستوعب كثيرًا. ومن قبل ذلك كانت فارس قرونًا عدة ميدانًا لنشاط لاهوتي وفكري عميق دقيق. فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلاً للزندقة والانقسام في الديانة الإسلامية. وكان الانقسام الشيعي فارسيًا في جوهره.

على أن الفرس ومعهم العلم الهليني لم يكونوا المعلمين الوحيدين الذين أتيحوا للعرب، فقد كان ذوو قرباهم اليهود منتشرين في كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الخاصة المميزة لهم. وأثر العقل العربي والعقل اليهودي كل منهما في صاحبه تأثيرًا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعًا. فاستفاد العربي من ذلك علما وأفاد اليهودي من ذلك مزيدًا من الشحذ الفكري. ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين في أمر لغتهم. فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة، يتكلمون الإغريقية في الإسكندرية المهلنة وها هم الآن في كافة أنحاء هذا العالم الإسلامي الجديد يتكلمون العربية ويكتبونها. فكتبت في العربية طائفة من أعظم الآداب: (المؤلفات) اليهودية، منها على سبيل المثال، كتابات ابن ميمون (Maimonides) الدينية [1]. والواقع أن من العسير أن نقول، في حالة هذه الثقافة العربية، متى ينتهي المؤثر اليهودي ويبدأ العربي، فإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حدًا كبيرًا.

وفضلاً عن ذلك، فثم مصدر ثالث للإلهام، هو، بلاد الهند – وقد تجلى على الأخص في علم الرياضيات، ويعسر علينا في الوقت الحاضر أن نقدره حق قدره. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن الذهن العربي إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكريتي وبعلم الفوزيقي "الهندي الفارسي" Indo-Persian.

وقد تجلت نواحي النشاط الذهنية التي يمتاز بها العقل العربي منذ أيام بني أمية وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا في عهد العباسيين. والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم، وكان أول من برّز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين. وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى. حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتيازًا خاصًا، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهذب، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي. وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات في فقه اللغة.

---

[1] هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٢٣٥ – ١٢٠٤) فيلسوف وطبيب يهودي ومصنف قوانين. ولد بقرطبة، وأنتج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيبًا لصلاح الدين وأولاده بمصر، وله مؤلفات منها "مشنة التوارة" و "دليل الحائرين" (المترجم).

وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به مجموعة من الجامعات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة، تطورت عما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد. فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب. وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوي أعدادًا كبيرة من الطلاب المسيحيين، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق إسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأوربي الغربي عامة، – جسيما جدًا ولا جرم. ويبرز اسم ابن رشد القرطبي (١١٢٦ – ١١٩٨) ممثلاً لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سلطان على الفكر الأوربي. وهو الذي طور تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصدق الديني عن الصدق العلمي فصلاً تامًا، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمي من المذهب الاعتقادي (Dogmatism) اللاهوتي الذي كان يقيده في ظلال كل من المسيحية والإسلام. وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ – ١٠٣٧) الذي ولد في الطرف الآخر من العالم العربي ببخارى، وتنقل في خراسان [1]... وازدهرت صناعة نسخ الكتب في الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغداد، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية في قرطبة لتعليم الفقراء.

ويقول تاتشر وشويل [2]: "شاد العرب ما شادوه في الرياضيات على الأسس التي أقامها الرياضيون الإغريق. وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام. وقد حدث في عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة، كانت من ناحية جزئية شبيهة جدًا بالأرقام التسعة التي نستعملها الآن". وكذلك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شبهًا بأرقامنا؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر، عندما اخترعه رياضي عربي اسمه محمد بن موسى [3]، الذي كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في خاناتها. على أن هذا ينازع فيه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنفسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلاً للهند على الثقافة.

"ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس في الهندسة إلا الشيء القليل، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائري مخترعين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (Contangent)، واخترعوا في "علم الفوزيقي" البندول وكتبوا في علم البصريات (Optics) بعض الكتب. وتقدموا بعلم الفلك. فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرًا من الآلات الفلكية لا تزال تستعمل حتى اليوم. وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتي الاعتدالين. وكانت معرفتهم بالفلك جسيمة ولا مراء.

---

(١) خراسان : هي منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان. (المترجم).

(٢) في كتابهما: "A General History of Europe"

(٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠) رياضي وفلكي وجغرافي، عربي عاصر المأمون (المترجم)

"وتقدموا في الطب أشواطًا بعيدة على الإغريق. ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة، ويكاد علم الأقراباذين [1] (المادة الطبية Medical material) لديهم أن يكون هو نفس مـ ا لـ دينا اليوم. ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم. وكان جراحـ وهم يفهمـ ون استعمال التخدير، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة. وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسـ ة تحرم ممارسة الطب انتظارًا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة، كـ ان لـ دى العرب علم طبي حق.

"وابتدعوا في الكيمياء بداية حسنة. واكتشفوا كثيرًا من المواد الجديدة، من أمثال البوتاس ونترات الفضـ ة والسليماني وحمض النتريك والكبريتيك. وكلمة "الكحول" عربية؛ وإن كانت المـ ادة معروفـ ة باسـ م "أرواح الخمر" عند بليني (١٠٠ م). فأما في الصناعة فإنهم بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصـ ميم وإتقـ ان الصنعة. كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن: الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصـ لب. ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات. وصنعوا زجاجًا وخزفًا من أرق الأنواع وأشـ دها امتيـ ازًا. وعرفوا أسرار الصباغة، وصنعوا الورق. وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود، وكانـ ت مصـ نوعاتهم الجلدية شهيرة في كافة أرجاء أوربا. وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة. وصنعوا السكر مـ ن القصـ ب، وأوجدوا أصنافًا كثيرة ممتازة من الخمور. ومارسوا الزراعة بطريقة علمية، وكانت لـ ديهم طرائـ ق جيـ دة للري. وعرفوا قيمة المخصبات، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة. وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفـ وا كيف يطعّمون النباتات وكيف ينتجون أضربًا جديدة من الفواكه والأزهار. وأدخلوا إلى الغرب أشجارًا كثيرة ونباتات متعددة اجتلبوها من الشرق، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة".

وثمة عنصر في هذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشـ رية الفكريـ ة، وهـ و صـ ناعة الورق. ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى؛ وأخذها الأوربيـ ون عـ ن العرب. وكان لزامًا حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرَّق [2] أو البردي، حتى إذا فتح العرب مصـ ر، انقطع عن أوربا مورد البردي. وما كان فن الطباعة بكبير الغناء، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبي العـ ام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة، حتى أصبح الورق وفيرًا. وربما كان هذا عاملاً أعظم أثرا فـ ي تـ أخر أوربا النسبي أثناء العصور المظلمة، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به...

([1]) الأقرباذين: فرع الطب الذي يبحث في مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها. (المترجم).

([2]) الرق بفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه – المعجم الوسيط . (المترجم)

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة. ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية؛ فقد كان نظام الحكم عندهم في كل مكان مطلقًا وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل، وهي أمور كانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف. ولكن روح الإسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أعجز من أن تحطم هذه المدنية، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرقي لم يفتأ يشتد قوة ولكن في بطء كبير. واستمرت حياة الإسلام الذهنية نابضة بالحياة حتى أطبق الترك عليها. ولعلها كانت تمني نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى في توجيهها السياسي من آيات العنف والمخالفة لكل معقول. وقد كان هذا. حتى ذلك الحين، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب في كافة الأقطار. إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافرًا من الاصطدام برجل العنف والقوة. وكان على الجملة رجلاً ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان. ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه وإلى ذلك الحين، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصب الديني (الفنطيق) وثقته بنفسه. ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لديهم عقائد ثابتة، واستجمعوا الثقة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة، فاهتدوا في بطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي العام والأدب الرائج بين الناس عامة، وها هم اليوم أشد ميلاً إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل في أي عصر من عصور تاريخ العالم.

الفن العربي

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العمارة، وهي تسمى بأسماء متنوعة هي: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية. على أن العربي الحق فيما يقول "جايت Gayet" لم يك قط فنانًا. وإنما شيد العربي المساجد والقصور والقبور والمدن، لأنه اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة. على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعماريه بين المصريين والسوريين والفرس الذين أخضعهم. فلم يكن الفن العربي في فارس إلا مجرد استمرار للفن الفارسي، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيقي يساير الظروف الجديدة، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة في المباني والزخرفة. كان هذا هو الفن "العربي" بأدق معانيه. وإلى الغرب في شمال إفريقيا وإسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد الأشكال البيزنطية باستبدال العقد المستدير بالعقد المدبب؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطي كثيرًا بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا يغفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التنزيين الزخرفي بالرسوم والنقوش. وكان المزاج العربي المفطور على التأمل والنشوة ميالاً بكليته إلى تقوية هذه العملية. "ولا يرجع ذلك – كما يقول جايت – إلى الرغبة في إطاعة ناموس ديني – لأن هناك كثيرًا من التصاوير العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية – بل إلى غريزة فطرية ركبت فيهم". والعربي يبدي في شئون الحياة العادية، وبصرف النظر عن أية ثقافة، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جسد عار. وحدث تدريجيًا في ثنايا تطور الفن العربي أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المتشابكات الهندسية المسماة "بالنسق الزخرفي العربي Arabesque " وتصبح السقوف والأقبية مغشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقًا، فيتكاثر التلبيس بالأستار المثقّبة، بل إن الشكل الخارجي نفسه يصير مجسمًا متعدد السطوح، وتغدو الأقبية مغطاة بجمانات (Studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (Polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلي المعلقات الكلسية [1]. ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال جديد سحري شبيه بجمال البلورات والتموجات المائية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء، ولكنه جمال يضاد على خط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الهليني.

وتقترن هذه التطورات البنائية بخصائصها العربية في أذهاننا بالمئذنة والقبة البصيلية واستعمال جميل للقراميد المزججة التي غالبًا ما تكون جزلة الحليات. وثمة توسع هائل في استعمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربي الانسيابي الجميل.

([1]) المعلقات الكلسية: (Stalactites) : تكوينات كلسية مدببة تنشأ في الكهوف الطبيعية عن رشح المياه الجيرية وتبدو متدلية كالثريات والشموع من سقوف الكهوف. (المترجم)

الفصل الحادي والثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

١- العالم الغربي في أشد دركات تدهوره.

٢- نظام الإقطاع.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية.

٤- تنصير البرابرة الغربيين.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورًا على الغرب.

٦- شخصية شرلمان.

٧- الفن والعمارة الرومانسكميان.

٨- الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم.

٩- النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون.

١٠-كيف استغاثت القسطنطينية بروما.

١١-الحروب الصليبية.

١٢-الحروب الصليبية اختبار للمسيحية.

١٣-الإمبراطور فردريك الثاني.

١٤-معايب البابوية وتحديداتها.

١٥-قائمة بأسماء البابوات العظام.

١٦-العمارة والفن القوطيان.

١٧-موسيقى العصور الوسطى.

العالم الغربي في أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التي قامت في مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربي.

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ألمّ بالنظام الإمبراطوري الروماني في الغرب، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنين الخامس والسادس، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة. وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام. وكل ما في الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكمًا غير مستقر. فكانت الجزر البريطانية مثلاً. مقسمة بين حشد كبير من الحكام؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون في أيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض. وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضًا إلى عدد من الممالك غير المستقرة، وهي كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية، وهي دول لا تنقطع الحرب بينها أبدًا.

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفًا يتولى الملك، كما كان جريجوري الكبير في روما. وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك. وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء، كل يزود عن حياضه ومعه أتباعه. وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك، ولكن كان ينافسه في تلك السيادة ويرجحه تمامًا في بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه "دوق روما". وقد حُوِّل المجتلد [1] العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد، وكذلك حُوِّل قبر الإمبراطور هادريان الهائل المستدير؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الخربة للمدينة التي كانت يومًا ما حاضرة الإمبراطورية. وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجوري الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أي حصن الملاك المقدس، لأنه عندما كان البابا جريجوري يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي لله طالبًا رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دمارًا، أطافت به رؤيا مَلَك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفًا، وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب. وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دورًا عظيمًا للغاية في الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب.

---

(1) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة، وهو مفروش بالرمل للمصارعات. انظر المجلد الثاني ص ٥٦٣ [ط٣]. (المترجم)

وكانت إسبانيا على نفس التمزق السياسي الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وكان النزاع القديم بين القرطاجي والروماني لا يزال مستمرًا في إسبانيا متمثلاً في العداء المرير بين أخلاقهم وورثتهم من يهود ومسيحيين، حتى إنه لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشمالي إلى مضيق جبل طارق، وجدت في يهود إسبانيا أعوانًا متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوربا. فإن جيشاً عظيمًا من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة في الصحراء الإفريقية والأراضي الجبلية الداخلية الذين اعتنقوا الإسلام)، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١). وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضع سنين [١].

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس، واندفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد موشك أن يخضع بلاد الغال (فرنسا) بنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجزيرة الإسبانية. على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب، هو مملكة جديدة للفرنجة، أخذت أجزاؤها تتماسك طوال قرنين تقريبًا في أرض الراين وشمال فرنسا[٢].

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا، والتي كانت الحصن الغربي لأوربا ضد دين محمد، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خلف جبال طوروس حصنها الشرقي؛ على أنا نرى لزامًا علينا أولاً أن نقدم إليك بياناً عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التي نشأت منها تلك المملكة.

---

(١) صحيح أن اليهود في إسبانيا كانوا يسامون سوء الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بإسبانيا. ولكنه صحيح كذلك أن لذريق ملك إسبانيا عند الفتح العربي لها كان مغتصبًا للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثائرين عليه نفسيًا متحفزين للإيقاع به. ومع ذلك فهذه عوامل نتلمسها لهزيمة القوط في شريش ويمكن أن يكون منها قوة جيش الخليفة المعنوية ومهارة قواده العسكرية واستماتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والدين. (المترجم).

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي مني فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارل مارتل وهو في إشارته يعزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافق وجيشه، ولكنه من العدل أيضًا أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطالت خطوط تموينه ومدده وقلت عدته وعدده بسبب الحاميات التي اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتد بها من رجال الجيش كانوا أثقلتهم الغنائم وأهمهم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحماسة التي كانت لهم في المشاهد والملاحم السابقة فكان ما كان من هزيمة وهي أمور أشار إليها المؤلف في فصل سابق. (المترجم).

٢- نظام الإقطاع

من الضروري أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوربا الغربية في القرن الثامن. فإنها لم تكن على همجية بربرية. أجل كانت أوربا الشرقية لا تزال متبربرة ومتوحشة؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلاً عن حالها التي وصفها جيبون في بيانه عن بعثة بريكوس إلى أتيلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص ٦٦٠). على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة، لا قانون فيها ولا إدارة، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد ممدنة.

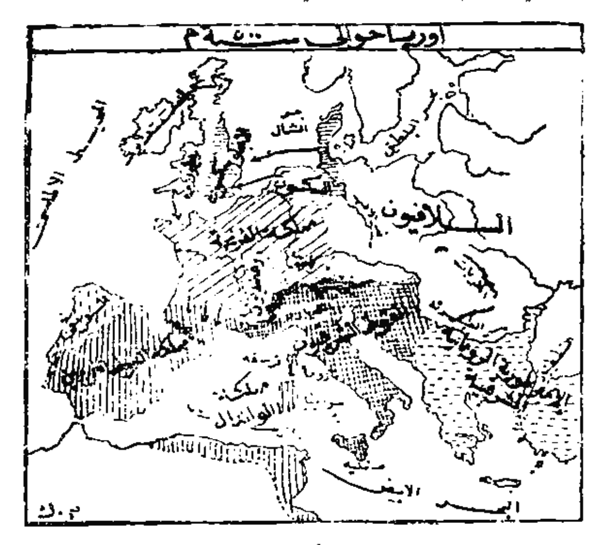
كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم. ومن الشائق الممتع أن نتتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد. فلو أن انهيارًا حدث في عصرنا هذا لتم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية، تتحد فيما بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكمًا ديمقراطيًا بدائيًا خشناً. ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمبراطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن، كانت أكثر اتجاهًا صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحد رؤساء البرابرة هنا أو أسقفًا قويًا هناك أو مدعيًا لوظيفة رومانية قديمة، وهنا تجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به، أي رجلاً من أسرة عريقة، وتعثر هناك على قوى مغتصب للسلطان، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده مجالاً للاطمئنان والأمن.

لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال. وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجله وتابعه. وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه. وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلما تكاثر المنضوون تحت جناحه. وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي، في خضم الارتباك وانعدام القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية. وهذه الارتباطات والمخالفات الطبيعية تمامًا بين الحامي والأتباع سرعان ما تدرجت في النمو فأصبحت نظامًا هو "نظام الإقطاع"، والذي لا تزال آثاره باقية في التركيب الاجتماعي لكل مجتمع أوربي غرب الروسيا. وكان يختلف اختلافًا بينا في مظاهره الخارجية.

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صورًا فنية وأصولاً وقوانين خاصة بها. فكانت في قطر كبلاد الغال متقدمة تقدمًا حسنًا أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على "الإمبراطورية الغربية" ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظامًا سبق أن لحظناه لدى المقدونيين، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشمالية، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب، وهم رفقاؤه أو لداته وبطانته من النبلاء (COIMITATUS) (الكونتات) أو قواده. فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوي شكل العلاقة بين الكونت ومليكه، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى

عليها والمصادرة. وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحماية المتبادلة للناس والممتلكات؛ وجاءت من الجانب "التيوتوني" فكرات جمعيات الفرسان، والإخلاص والخدمة الشخصية. وكانت الأولى هي الناحية الاقتصادية للنظام، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه.

والمماثلة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جدًا. وبينا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراحل الارتباك ودواماته تدور وتهدر في أوربا الغربية، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع، وأتباع أتباع، وهي تتدافع إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من جديد أو تلتحم. وإنا لنستعمل مصطلح "نظام الإقطاع" من أجل اليسر والسهولة، ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى "الترتيب والنظامية". فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية. إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطرابًا نظم على أخشن وجه، وكان التغاير والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشرًا في كل مكان. ومن ثم فلن يدهشنا وجود تباين في الوقائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى. وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر على شدة ما أوتي من اتساع الرقعة إلى اكتمال منطقي واتساق في الممارسة والعرف كان منقطع النظير في صميم العصر الإقطاعي نفسه.



(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالي عام ٥٠٠م

"والأصل في العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعية (Fief) التي كانت في العادة أرضًا، ولكنها ربما كانت أي شيء مرغوب فيه كالوظائف، أو الدخل نقدًا كان أم عينًا، أو حق جمع مكس أو (فرضة مالية)، أو إدارة طاحون. وكان الرجل يصبح في مقابل الإقطاعية تابعًا [1] (vassal) لمولاه؛ فكان يجثو أمامه، ويعده – ويداه بين يديه – بالولاء والخدمة... وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد

([1]) ويسمى أيضًا بالمقطع [بضم الميم وفتح الطاء] أو الفَصَل (Vassal) (المترجم).

الولاء قوام حقه في التمتع بإقطاعته: فإذا أديت الواجبات، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكًا حـ ـلالا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم المـ ـلاك. وفـ ـي حفلـ ـة الـ ـولاء والتخويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان، غير محددة في العادة تحديدًا دقيقًا. وكان العرف المحلي هو الذي يحددها. وكانت خدمات التابع تختلف اختلافًا بينًا فـ ـي كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة. على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين، عامة وخاصة. فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء: من المحافظة على مصالح السـ ـيد، وكتمان أسراره، وإفشاء خطط أعدائه، وحماية عائلته وهكذا، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديدًا، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحيانًا والوثائق المكتوبة في بعـ ـض الأحيـ ـان الأخرى. وكانت أبرز نواحيها هي الخدمة العسكرية، التي كانت تتضمن الخروج إلى الميدان عند النفير بقوة معينة من الجند، غالبًا ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد. وتبقى فيه زمنًا معلومًا. وكانت كثيرًا ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه فـ ـي الـ ـدفاع عن إقطاعه (Fief)... وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هـ ـذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأنًا في القـ ـاع، وهـ ـي أجـ ـر الفارس، حتى الملك في القمة، وهو مالك الأرض الأعلى، أو هو الذي وهبه الله المملكة..." [1].

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة. ولكن الحقيقة الواقعية في نظـ ـام الإقطـ ـاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختياري.

"وقد قيل: إن الدولة الإقطاعية دولة اغتصب فيها القانون الخاص مكان القانون العام". ولكن أليس الأصح أن يقال: إن القانون العام قد فشل وتوارى وإن القانون الخاص جاء ليسد الفراغ الحاصل؟ لقد صار الواجـ ـب العام إلزامًا خصوصيًا.

---

(1) الموسوعة البريطانية – الطبعة الثانية عشرة – مادة "الإقطاع للأستاذ ج. ب. آدامز.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية

سبق أن ذكرنا من قبل ممالك متنوعة للقبائل البربرية الذين أقاموا لأنفسهم بين أنقاض الإمبراطورية سيادة هزيلة تتفاوت في رثاثتها فوق هذه المنطقة أو تلك، وهي ممالك السويفي والقوط الغربيين بإسد بانيا ومملك ة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التي عقبت القوط بعد أن طردهم جستنيان وبعد أن ع اث الوباء العظيم في إيطاليا تدميرًا.



(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فيما هو الآن بلجيكا، ثم امتدت جنوبًا حتى اللوار، بيد أنها أظهرت من القوة والتماسك ما يفوق كثيرًا ما كان لدى الأخريات. وكاذ ت أول دول ة حق ة تخرج من غمرة الدمار العام. ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة. ومنه ا نبعت دولتان عظيمتان في أوربا العصرية، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية. وكان مؤسسها هو كل وفيس (Clovis) (٤٨١ – ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكًا صغيرًا في بلجيكا وانتهى وح دوده الجنوبي ة تك اد تت اخم البرانس. وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة. على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم م ن ه ذا التقسيم، وثارت بين الإخوة حينًا من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بي نهم. على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية، وبعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة، لغة السكان المقهورين، على ح ين اح تفظ

فرنجة إقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا [1]. وتتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية، توترات سياسة قوية للغاية. وأقام العالم الفرنجي مائة وخمسين سنة وهو منشق شطرين، هما نوستريا (Neustria)، وهي نواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن، وأوستراسيا وهي أرض الراين التي ظلت ألمانية. وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا، ويقاربون الأنجلوسكسون كثيرًا لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا. وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية [2] الدنيا (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية. والواقع أنه حيثما لم يصطبغ الفرنجة بالصبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولنديي جنوب هولندة (فأما هولندة الشمالية فلا تزال فرزية Friesisch أي أنجلوسكسونية). "والفرنسية" التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبغة اللاتينية في القرن السابع إلى العاشر، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch)، استنتاجًا منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة [3].

ولسنا بمحدثيك ها هنا عن انحلال الأسرة الميروفنجية التي أسسها كلوفيس، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفًا بعينه في البلاط، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace)، أصبح بالتدريج ملكًا فعليًا، واتخذ من الملك الحقيقي ألعوبة طيّعة. ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثيًا أيضًا في القرن السابع، وفي (٦٨٧) كان من يدعى ببين الهرستالي محافظ القصر في أوستراسيا قد غزا نوستريا ووحد كل الفرنجة تحت لوائه. وأعقبه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل، الذي لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر. (فأما سادته الملوك الميروفنجيون التافهون المساكين، فلا يعنينا أمرهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل [4] هذا هو الذي أوقف المسلمين العرب. وكانوا قد وصلوا إلى "تور" عندما التقى بهم، وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين بواتييه (٧٣٢) وفلّ من عزيمتهم. ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم. فلم يتقدموا بعد ذلك في أوربا الغربية.

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب. تاركًا أخاه ببين حاكمًا وحيدًا على الدولة. وببين هذا هو الذي قضى نهائيًا على أحفاد كلوفيس. إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر يعيده، فقضى لصالح محافظ القصر. وبذلك انتخب ببين ملكًا في جمع نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج. وكان ذلك في (٧٥١). وقد قوّى ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التي وحدها ببين. وظلت الدولة موحدة متماسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠)، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد – مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقًا في الجنس ولا المزاج، بل فارقًا في اللغة والتقاليد.

---

(1) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(2) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(3) الرومانشية هي اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا. (المترجم).

(4) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر للمترجم "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص (الألف كتاب، ومكتبة عالم الكتب).



(شكل ١٣٤) خريطة إنجلترة عام ٦٤٠ م

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يثمر ثمارًا مريرة إلى يومنا هذا. ففي ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجج من جديد حربًا ضروسًا. وفي أغسطس من تلك السنة، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون، وعبر الكوبرى الخشبي المؤقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne) بين القسم الرئيسي بالمدينة وبين ضاحية القديس ميدارد (Medard). وكانت أستار من الخيش تحمي المارة على الكوبري من عيون الرماة القناصة الألمان، الذين كانوا يطلقون النار من خنادقهم في منحنى النهر. فسار مع أدلائه مخترقًا حقلاً ثم تقدم بمحاذاة جدار بستان انفجرت فيه قنبلة ألمانية أثناء مروره. وبذا وصل إلى المباني المحطمة التي تقوم في موقع دير سانت ميدارد العتيق، الذي خلع فيه آخر الميروفنجيين، وتوج فيه ببين القصير مكانه، ومن تحت هذه المباني العتيقة، كانت توجد سراديب عظيمة، صالحة جد الصلاحية لتكون خنادق – ذلك أن الخطوط الألمانية الأمامية لم تكن تبعد أكثر من مائتي ياردة. وكان الجنود الفرنسيون الفتيان الأقوياء يهيئون الطعام ويستريحون في هذه المخابئ، وينامون بين التوابيت الحجرية التي احتفظت بعظام ملوكهم الميروفنجيين.

٤- تنصير البرابرة الغربيين

والسكان الذين كان يحكمهم شارل مارتل وببين، كانوا في مستويات من المدنية مختلفة جدًا باختلاف الأصقاع. ففي الغرب والجنوب كانت كتلة السكان مكونة من الكلت المسيحيين ذوي الصبغة اللاتينية؛ وفي المناطق الوسطى كان هذان الحاكمان يتوليان شئون ألمانيين يتفاوتون في مدى اعتناقهم للنصرانية، من أمثال الفرنجة والبرجنديين والأليماني (Alemanni)؛ وإلى الشمال الشرقي كان لا يزال يوجد فريزيون وسكسونيون وهم على الوثنية؛ وكان البافاريون إلى الشرق؛ وقد تنصروا حديثًا بفضل نشاط القديس بونيفاس (Boniface)، وإلى الشرق من هؤلاء كان يوجد كذلك صقالبة وآفار على الوثنية. وكانت "وثنية" الألمان والصقالبة مشابهة جدًا لديانة الإغريق البدائية، كانت ديانة رجولة يلعب المعبد فيها والكاهن والقرابين دورًا تافهًا وكانت آلهتها شبيهة بالبشر، أو بضرب من "قادة الطلبة بالمدارس"[1]، فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشئون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم ودون قاعدة مطردة. وكان الإله جوبيتر يتمثل عند الألمان في الإله أودن (Oden). والإله مارس (المريخ) يمثله ثُورْ (Thor) والربة الزُهرة تمثلها لديهم الربة فريبا (Freya) وهكذا. وتواصل إبان القرنين السابع والثامن تنصير هذه القبائل الألمانية والسلافونية (الصقلبية).

وربما كان من الشائق للقراء الناطقين بالإنجليزية، أن يتنبهوا إلى أن أشد المبشرين حماسة ونجاحًا بين السكسون والفريزيين جاءوا من إنجلترة. وقد وضعت بذور المسيحية مرتين في الجزر البريطانية. فكانت موجودة بها فعلاً حين كانت بريطانيا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. إذ يذكرون أن شهيدًا اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز، ولا شك أن كل زائر لكانتربري، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل إبان العهد الروماني. وانتشرت المسيحية من بريطانيا – كما أسلفنا – خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة – وكان أهم المبشرين القديس باتريك – وحدثت حركة رهبنة قوية تتصل بها أسماء القديس كولمبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona) [2]. ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الخامس والسادس، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم المسيحية الرئيسي. وفي القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصِّرون الإنجليز في كل من شمال إنجلترة، حيث أتوا من إرلندة، وفي الجنوب وافدين من روما. وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجوري الكبير عند نهاية القرن السادس بالضبط. وتقول الرواية إنه رأى غلمانًا من الإنجليز يباعون في سوق الرقيق بروما، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك. كانوا شديدي الشقرة ووسام الطلعة. فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز. فقال "إنهم ليسوا إنجليزًا (Angles) وإنما هم ملائكة (Angels) [3] لو أن لديهم الإنجيل".

([1]) قادة الطلبة بالمدارس هم أوائل طلبتها وزعماؤهم. (المترجم)

([2]) هي جزيرة من جزيرة من جزر الهيرباس الداخلية باسكتلندة نصرها كولمبا في ٥٠٣ م. (المترجم).

([3]) هنا يلعب الكاتب على الجناس بين لفظتي (Angles) أي الإنجليز و (Angels) أي الملائكة. (المترجم).

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع. وقبل أن ينتهي ذلك القرن كان معظم الإنجليز قد تنصروا؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الإنجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة، دفاعًا عن العقيدة والطرائق القديمة. وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدمًا سريعًا في العلوم. فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا في شمال إنجلترة مركزًا للنور والعرفان. وكان ثيودور الطرسوسي من أوائل رؤساء أساقفة كانتري (٦٦٨ – ٦٩٠). "وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلاً تامًا في غرب أوربا، كان بعض تلاميذ ثيودور يجيدونها. وكانت الأديرة تضم كثيرًا من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة. وكان أشهرهم جميعًا بيد (Bede)، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ – ٧٣٥)، وهو راهب من جارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne). وتتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمائة، فضلاً عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه. ولم يبرح بيد حتى أتقن بالتدريج كل علوم زمانه، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلدًا من كتاباته، أهمها "تاريخ الإنجليز الكنسي [1] " وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية. وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا. ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائعًا بكل أوربا. ونظرًا لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من الدهر تقدمًا كبيرًا على الجنوب في المدنية [2].

وإنا لنجد المبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية. وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ – ٧٥٥)، الذي ولد في كريديتون بمقاطعة ديفونشير والذي نصّر الفريزيين والثورنجيين والهيسيين (Hessians) ثم استشهد في هولندة.

وفي كل من إنجلترة والقارة الأوربية، كان الحكام الذين أخذ نجمهن يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض. وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان – شأنها في أوغندة بأفريقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية.

وخلف ببين الذي توفي ٧٦٨ ولداه، شارل وأخوه، فاقتسما مملكته، ولكن أخا شارل توفي (٧٧١)، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ – ٨١٤) في مملكة الفرنجة النامية. ويعرف شارل هذا في التاريخ باسم شارل الكبير في شارلمان، وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، فإن الخَلَفَ بالغوا في الإشادة بذكراه. فإنه جعل من حروبه العدوانية حروبًا دينية لا شك فيها!! وظل عالم شمال غربي أوربا بأجمعه الذي هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا والدانمرك والنرويج والسويد طَوَال القرن التاسع، معتركًا لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة. وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوبًا بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه.

---

(1) "The Ecclesiastical History of the English"

(2) انظر: "A General History of Europe" تأليف ثاتشر وشويل.

فاستخدم شرلمان السيف والنار في التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبوهيميين، بل توغل حتى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجرد؛ وحمل نفس التعاليم منحدرًا بها حتى سواحل الأدرياتي" خلال ما هو الآن دالماتيا [1]؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة.

زد على ذلك أنه هو الذي آوى إجبرت (Egbert)، يوم نفى من وِسكِس بإنجلترة ثم ساعده من فوره في أن يقيم نفسه ملكًا في وسكس (٨٠٢). وأخضع إجبرت البريطون[2] في كورنوال، مثلما أخضع شرلمان البريطون في بريتاني (بفرنسا)، ثم تهيأ له بقيامه بسلسلة من الحروب التي والاها بعد وفاة نصيره الفرنجي، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإنجلترة بأسرها (٨٢٨).

على أن هجمات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يتنصروا. وكان الإنجليز المتنصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير في الملاحة الذي جاء بهم من أرض القارة الأوروبية، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة. وبينما كانت دعاية شرلمان تنساق نحو شواطئ بحر الشمال وبحر بلطيق، فقد دُفع الوثنيون دفعًا إلى البحر. وكان ردهم على اضطهادات المسيحية، القيام بغارات سلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترة المسيحية.

وهؤلاء السكسون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشمال (North men) الذين تذكرهم كتب تاريخنا القومي. وكانوا كذلك يسمون بالفيلك إنجز (Vik-ings) [3] ومعناها رجال الخلجان أو الفيوردات، لأنهم جاءوا من الثنايا العميقة في الشاطئ الإسكندناوي. حضروا في سفن طويلة سوداء تسمى القوادس [4]، مستعملين الشراع استعمالاً طفيفًا. ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الفيلك إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع، ونزرًا يسيرًا عما حلّ بإخوانهم الوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان. وكان عداؤهم للصليب والرهبان والراهبات شديدًا متطرفًا. ولشد ما كان يبهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء.

وظل هؤلاء الفيلك إنجز أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم. ثم اجترءوا على البحار الشمالية حتى أعدت شواطئ جرينلندة الثلجية مرتادًا مألوفًا لديهم، وكانت لهم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لم تعرف أوربا عنها شيئًا. ولم يكن لأهل الشمال أي مستقر دائم في أمريكا. وفي زمان ما يقارب (١٠٠٠م). قاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland)، على أنهم لم يتملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين. فإن قاربًا من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئًا بالهنود المنقوشي البشرة؛ فدار بخلد رجال الشمال

---

(١) دالماتيا: هي القسم المطل من يوغوسلافيا على شرق الأدرياتي. (المترجم).

(٢) البريطون: سكان بريطانيا القدماء الأصليون، أو سكان إقليم بريتاني بفرنسا. (المترجم).

(٣) تنبيه: تنطق هذه الكلمات فيك إنجز وليس في كنجز. ومعنى فيك: Vik هو فيورد أو خليج. (المؤلف).

(٤) القادس Gally: سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسير بالمجاديف والشراع. (المترجم)

أنهم ضيوف سوء شديدو القبح. ويلوح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص الصامت، ولكن لم يحدث بينهم ا تجارة ولا نزاع، لقد حملق العالم الجديد في وجه القديم. وحدثت المتاعب فيما بعد، وإذ إن رجـ ـال الشـ ـمال كانوا أقل عددًا وبعيدين عن أوطانهم، فإنهم جمعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهـ ـم. ولا يسـ ـجل التاريخ أي مستقر آخر لرجال الشمال على الأراضي الأمريكية. وفي القرن الثاني عشر، بدئ بكتابة كثيـ ـر من ملاحمهم (Saga) في أيسلندة. ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسـ ـرحًا للمغـ ـامرة الجريئـ ـة. فلطالما هاجموا كلب البحر والدب والحوت. وقد انتسجت في خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية فـ ـي الجنوب – وهي ضرب من الخليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجـ ـارث (أي المدينة العظيمة) – (قارن هذه بكلمة ميكلابابر (Miklabaer) الأيسلندية ومعناها المزرعة العظيمـ ـة). وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هذه أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطـ ـريقين، أولهما من جهة الغرب، وثانيهما عبر الروسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد. وبالطريق الروسـ ـي ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون.

ولم يكن الفيك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت؛ ولكن مع تقدم الأيام بـ ـالقرن التاسـ ـع، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة. ففي كثير من نواحي إنجلترة، لم يكن مركز المسيحية حتـ ـى آنذاك وطيدا بأي حال. إذ كان رجال الشمال الوثنيون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كـ ـل عطـ ـف ومعاونة. وما إن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترة في قبضة الدانيمركيين، وحتى كـ ـان الملـ ـك الإنجليزي ألفريد الكبير، قد اعترف بحكمهم لما فتحوه، (وهو ما يسمى بالقانون الـ ـدانيمركي Dane-Law) في الحلف الذي عقده مع جوثرام زعيمهم.

وبعد ذلك بقليل في (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العدّاء (Rolf the ganger)، أقدامها على ساحل فرنسا في الإقليم الذي عرف منذ ذلك الحين باسم نورماندي (أي بلد رجال الشمال Northman-dy).

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأي تطويل عن كيف حدث على الفور غزو جديـ ـد لإنجلتـ ـرة علـ ـى يـ ـد الدانيمركيين، ولا كيف أصبح دوق نورماندي آخر الأمر ملكًا على إنجلترة. والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل)، والسكسون والجوت والدانيمركيين أو النورمانديين ضئيلة لا تكاد تذكر؛ ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة في أخيلة الإنجليز، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدًا في مجـ ـرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر.

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية. إذ قبل الدانيمركيون بمعاهـ ـدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم، ولم يقف الأمـ ـر بأحفـ ـاد رولف في نورماندي عند حد التنصير، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر مـ ـنهم تمدنًا، ناسين لسانهم الشمالي (النورسي Norse) الخاص على أن هناك شيئًا. له شأن أعظم قدرًا في تـ ـاريخ البشرية، هو علاقة شرلمان بجيرانه في الجنوب والشرق، وعلاقاته بالتقاليد الإمبراطورية.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

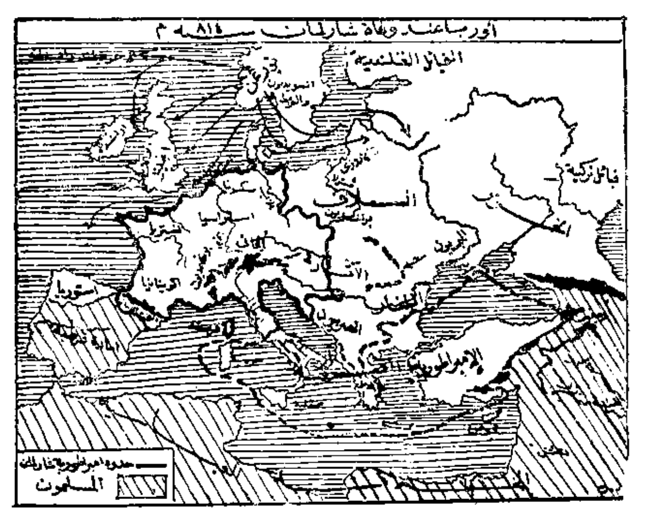
أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوربا على يد شرلمان. كانت الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية ممعنة في الاضمحلال؛ على أن تعليم أوربا وعقليتها كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سياسي جديد خلاق أن يكون ضربًا من المحال. ولعل أوربا بأكملها لم تكن لتحتوي مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التي نجدها في الأدب [1] الأثيني في القرن الخامس ق. م. ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع منهجًا سياسيًا جديدًا وتنظمه فكريًا.

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستارًا كثيفًا على تلك التعاليم العجيبة الرائعة، تعاليم يسوع الناصري التي منها انبعثت – كما أنها روضت نفسها على تجاهلها. فأما الكنيسة الكاثوليكية فهي حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها الذي خلقت من أجله، وأعني بذلك بلوغ مملكة السماء. ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض، التي تصورت أنها تراثها التليد. لقد أصبحت هيئة سياسية، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضي قُدمًا بمشروعاتها وخططها. وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هي الطريق الطبيعي لوحدة أوربا. على أن أوربا في ثنايا محاولاتها المتكررة إعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود، قد انحرفت إلى تزييف مثال لها شائه ممسوخ: وإلى ابتعاث كبوات الماضي وسقطاته التي أساءت تصورها.

وانقضى أحد عشر قرنًا من عهد شرلمان فما بعده، و "الأباطرة" و "القياصر" من هذه الأسرة أو تلك يظهارون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تتراءى لذهن مضطرب. ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من النمو العقلي في أوربا، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى، بيد أنها كانت عملية سارت في طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها، حتى ترامت آخر الأمر إلى تحطيم تلك الأوضاع تحطيمًا مطلقًا. وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنًا من القياصر الزائفين التي افتتحت بشرلمان، والتي لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ – ١٩١٨) الرهيبة الوحشية، – أشبه شيء بمصنع مزدحم يملكه رجل مصاب بالتجول أثناء النوم، فهو في بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقًا، وهو في أحيان أخرى معطل للأعمال تعطيلاً ينذر بالشر المستطير. بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول في نومه: فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيما الحياة. فأنت تشهد الإمبراطورية الرومانية تترنح ثم تنبطح على الأرض، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنا أن نتقدم بهذه (الصورة الخيالية) خطوة أخرى إلى الأمام – هي التي تقوم بدور الساحر وتبث في هذه الجثة سيما الحياة.

([1]) المؤلف هنا كعادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر في اللغة من أبحاث ومؤلفات أيًا كان نوعها. (المترجم).

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات، حول التحكم في الجثة يظل ناشبًا بين القوى الروحية ومختلف القوى الزمنية. وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التي ينطوي عليها كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطين. وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه، أو استمع لتلاوته – إذ إن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك. وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته في أمثل صورة وأسلمها، قيصر عظيم مثله، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه.



(شكل ١٣٦) خريطة أوربا عند وفاة شرلمان عام ٨١٤ م

على أن وجهة نظر روما في شأن الإمبراطورية المبتعثة، كانت تختلف قليلاً عن ذلك. إذ إن الرأي المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحي يجب أن يمسحه البابا بالزيت المقدس ويهديه سواء السبيل – بل هو الذي تكون له حتى سلطة حرمانه وعزله. وكان هذا التضارب في وجهات النظر واضحًا حتى في أيام شرلمان نفسه. على أنه ازداد حدة في القرون التالية.

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة، بل بغاية البطء والتدرج. فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية، وكان منهمكًا بكل قواه في الكفاح مع السكسون والبافاريين ومع الصقالبة في شرقهم، ومع المسلمين في إسبانيا. وفيما شب في ممتلكاته نفسها من ضروب العصيان. وحمله شقاق دب بينه وبين حميِّه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليا. وقد رأينا استقرار اللومبارد في شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوباء العظيم، وبعد خلع جستنيان لملوك القوط الشرقيين. كان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات، وقد أبرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة في زمن ببين. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤)، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا: إلى دالماتيا (٧٧٦). وفي (٧٨١) جعل ابنه ببين (الذي لم يعش بعده) ينصب ملكًا على إيطاليا ويتوج في روما.

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥)، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جع ل شـ رلمان إمبراطورًا. وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا. وكـ ان أقوي ـاء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون البابوات ويجبرونهم على المثول إلى القسـ طنطينية؛ وكـ ان الأبـ ـاطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر. ولطالما خامرت قصـ ر اللاتيـ ران [1] فكـ رة الانفصـ ال عـ ن القسطنطينية انفصالاً علمانيًا ودينيًا، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا بد منه إذا أريـ د تحـ دي القسطنطينية.

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولـ واءً، رمـ زًا لسيادته في روما بوصفه ملكًا لإيطاليا. وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامي الذي اختار. ذلـ ك أنه كان مكروهًا في روما؛ فهوجم في شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسيرة في أحد المواكب، واضـ طر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩). ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وإن لسانه قطع. ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان. فإن شرلمان أعاده إلى روما ورده إلى منصبه (٨٠٠).

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية. ففي يوم عيد الميلاد (٨٠٠)، وبينما كان شرلمان ينهض من الصـ ـلاة فـ ي كنيسة القديس بطرس، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء)، تاجًا على رأسه وحياه قيصـ رًا وأوغسـ طس. وعج الشعب بالاستحسان العظيم. ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته، يقـ ول إن الإمبراطـ ور الجديد لم تسره فعلة البابا المفاجئة هذه بأية حال. فإنه قال: "لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسـ ـة، مهما بلغ العيد من الجلال!". ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورًا، ولكن من الواضـ ـح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورًا. وكان يجول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان، وبذا يصبح عاهلاً لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربيـ ـة. ولكنه أصبح آنئذ مضطرًا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث، أي بوصفه هبة مـ ن البابـ ـا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية. وكانت بيزنطة في بادئ الأمـ ـر غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطوري. ولكن حـ ـدث فـ ـي ٨١١ أن حلـ ـت بالإمبراطوريـ ـة البيزنطية كارثة عظيمة. فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ – ٨١٥)، دحروا وشتتوا جيوش الإمبراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأسًا لكروم. وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان. (وبذلك يكون الشعبان البلغاري والإنجليزي ظهرًا كوحدتين سياسيتين في وقت واحد تقريبًا). وبعـ ـد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أي اعتراض على هذا الابتعاث للإمبراطورية في الغرب، وفي (٨١٢) اعتـ ـرف رسميًا بشرلمان إمبراطورًا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين.

---

[1] واللاتيران هو قصر البابوات الأول في روما. ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد. (المؤلف)

وبذلك تكون إمبراطورية روما التي ماتت على يدي أودواكر (Odoacer) في ٤٧٦، قد بعثت من جديد في ٨٠٠ م باسم "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" وعلى حين أن جسمها وقوتها الجسمية كانت في شمال جبال الألب، فإن مركز فكرتها كان روما. فكانت من ثم، منذ بدايتها، شيئاً موزعًا له قوة غير محددة، كانت دعوى وجدلاً أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها. كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على الدوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا، وكانت بعوثُ المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلفون من فوقها في الاتجاه المضاد. على أن الألمان لم يتهيأ لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملاريا التي كانت تلك البلاد المخربة المهملة غير المصرفة المياه مباءة لها. وثمة تقليد قديم كانت جذوته تتقد خلال الرماد في روما وفي مدن إيطالية أخرى عديدة، تقليد أعرق منبتاً، هو أحد التقاليد المتوارثة عن الجمهورية الأرستقراطية، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء.

٦- شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد [١]. ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة، نعم إنه يدلي إلينا بتفاصيل كثيرة، ولكنها ليست التفاصيل التي تبعث الحياة في صورة الرجل المسجلة. وهو يقول إن شرلمان كان رجلاً طويل القامة، له صوت ضعيف أو يكاد، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل. "وكانت قمة رأسه مستديرة"، (وما ندري لذلك القول معنى). وكان أشيب الشعر. وكانت رقبته غليظة قصيرة نوعًا و "بطنه شديد البروز". وكان يلبس إزارًا Tunic [٢] مطرز الحواشي بالفضة وجوربا له أربطة للساق. وكانت له عباءة زرقاء، وكان على الدوام متقلدًا سيفه، وكان مقبضه وحمائله من الذهب والفضة.

وواضح أنه كان رجلاً جم النشاط – وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة – ولم تحل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع. كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات. وكان يكثر من مزاولة الرياضة: وكان مغرمًا بالأبهة والحفلات الدينية، كريمًا يجزل العطاء. كان رجلاً متعدد نواحي النشاط عظيم الإقدام الذهني، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق الذي هو آخر – وربما كان ذلك إلى الأبد – هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان.

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لا تخلو من متعة، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة، ولكنها تمثل لنا نموذجًا من عقلية ذلك الزمان. كان له إلمام بالقراءة؛ والراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام "يصغي إلى الموسيقى أو القراءة"، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة؛ "وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا تهيأت له فسحة من وقت الفراغ، ولكن تقدمه كان طفيفًا في ذلك الفن الذي ابتدأه في وقت متأخر جدًا من حياته". ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوي على احترامٍ حق للعلم ورغبة صادقة في المعرفة" وبذلك قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه. ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزي.

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس)، إذ لم يكن هناك أي علماء آخرين، وطبيعي أنهم كانوا يصبغون المعلومات التي يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين. وكان مقر بلاطه في العادة إكس لاشابل أو مايانس" فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى "مدرسته"، وفيها كان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم ينبذون جانبًا كل تفكير في المراكز الدنيوية، ويتخذون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتَّاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة، ويتناقشون في اللاهوت والأدب. فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم "داود". فأفاد علمًا غزيرًا ومعرفة جسيمة باللاهوت، وإليه ينبغي لنا أن

---

[١] انظر : "Life of Karl the Great" تأليف إجنهارد (جلايستر).

[٢] هو رداء روماني يشد بنطاق حول الخصر. (المترجم)

نسب اقتراح إضافة عبارة: "وعن الابن أيضًا Filio que" إلى قانون إيمان العقيدة النيقية [1] – وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى. ولكنا نشك كثيرًا في أنه كان يرمي إلى مثل هذه الفرقة. فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحي كلمة أو ما إليها، كما شاء الإمبراطور غليوم الثاني بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوبرات) وأن يدبج الصور، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة إسبانية. فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل؛ واقتضت حكمة البابا ليو معارضتها. وعندما تم قبولها آخر الأمر، كان ذلك على الأرجح عمدًا بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية. والنقطة التي ينطوي عليها الموضوع، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية، غير أن كاتب هذه السطور لا يستطيع أن يدلي فيها برأي. فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن "الروح القدس" ينبثق من الآب "وعن" الابن، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن "الروح القدس" إنما ينبثق من الآب دون أي ذكر للابن. وهذا الاتجاه الثاني يبدو كأنما يميل هونًا ما نحو وجهة النظر الآريوسية. ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول في تنظيم شرلمان للإمبراطورية. فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث في شروط الاستقرار السياسي، وأجدر الأمور بالذكر في هذا الصدد هي أنه أوصى ابنه وخليفته، لويس الورع (٨١٤ – ٨٤٠)، بأن يأخذ التاج من المذبح "ويتوج نفسه بنفسه". على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عندما اعترض البابا.

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن، جيد المعرفة بالكتاب المقدس، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمبراطورًا، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحيًا صالحًا. وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام.

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العمارة، فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين، من رافنا (Ravenna) بصفة خاصة، ونحن مدينون لهم بكثير من المباني الجميلة التي ما زالت تبهج السائحين في ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين. وبذل جهدًا كبيرًا للنهوض بفن العمارة "الرومانسكي" [2] الذي سنصفه في القسم التالي. وأسس عددًا من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة، وفعل الشيء الكثير لتشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة، وكان هاويًا ممتازًا شديد الولع بموسيقى الكنيسة. على أن احتمال تحدثه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر؛ ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية. ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هي لغته العادية. وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة. على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيتها.

---

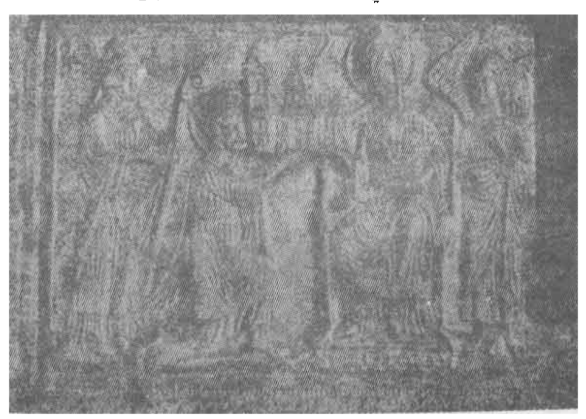
[1] يشير كما أسلفنا إلى المجمع الذي عقده قسطنطين (٣٢٥ م) وأصدر قانون إيمان انظر (ص ٧٤١). (المترجم)

[2] الرومانسكي طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الروماني والقوطي. انتشر بغرب أوربا بين القرن التاسع والثالث عشر. (المترجم).

وتبادل الرسائل وهارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد، الذي يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بم ا لقي ه العرب الأمويون في إسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه "المراسلات العلنية كانت تق وم على الغرور"، وأن "مركزيهما المتباعدين لم يتركا أي مج ال لاحتك اك المص الح". ولك ن لم ا كان ت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق، والخلافة المستقلة بإسبانيا في الغرب، والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية. ويق ول جيب ون إن هارون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطًا فاخرًا وساعة مائي ة وف يلا ومف اتيح الذ اووس المقدس. والهِبّة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يَعدّ شرلمان إل ى ح دِ م ا، ح امي المس يحيين والممتلكات المسيحية في مملكته، ويعلن بعض المؤرخين صراحة – أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد.

٧- الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الف اخر الاذ زان والجمود، أي فن العمارة الذي يوجد في تدمر وبعلبك قد ألم به تحوير سريع عميق. تحول به نحـ و جمـ ود الجزالة الأثيرية التي للطراز البيزنطي؛ أما في الغرب فكانت تلم به تطورات مشابهة وإن لم تك ن مذ اظرة لتلك تمامًا. وقد شاع إطلاق اسم "الرومانسكي" على أضرب جمة من المباني تتبد دى فيهـ ا جميعـً ا صد فة مشتركة، لأنها مشتقة جميعًا من التقاليد الفنية الرومانية، التي أوهن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عام ة في أرجاء العالم، ولكنها تشهد أيضًا في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديـ دة وضـ رورات اجتماعيـ ة جديدة. فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أي أقواس نصـ ر ولا معابـ د تقـ ام للآلهة. بل كانت هناك حصون وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة، وكنائس وأبراج. ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوربا: ذلك أن فن العمارة أخذ يعلو صُعُدًا. وقد كنا حتى الآن لا نشاهد الأبراج إلا فـ ي أرض الجزيرة بالعراق. ولم تحاول المباني في العالم المصري ولا الهلّيني ولا الروماني أن تشق عنان السـ موات. حقًا إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلّينية وفي سـ ور الصـ ين العظـ يم، وهـ ي أجـ زاء مـ ن الاستحكامات الدفاعية، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية. ثم يصـ بح البـ رج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع – وسنحدثك في قسـ م مقبل عن أهل الشمال (North men) والعرب والمجريين. وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسـ بب صـ لاة الجماعة التي يدعو إليها الدين الجديد، وطبيعي أن يظهر الاثنان جنبًا إلى جنب.



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قبر شرلمان

في إيكس لاشابل يمثله وهو يكرس كنيسة للعذراء

